محاضرات في المكتبة العربية ومصادر التراث

(مكتبة عربية ٢)

إعداد

د/ شوزان نشأت عبد الرازق

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

العام الجامعي

٢٠٢٣/٢٠٢٤م

بيانات الكتاب

الكلية: التربية بقنا

الفرقة: الثانية

القسم: تعليم عام

التخصص: لغة عربية ودراسات إسلامية

تاريخ النشر: الفصل الدراسي الأول ٢٠٢٤

عدد الصفحات :٢٤٦

المؤلفون: د/ شوزان نشأت عبد الرازق

الرموز المستخدمة

نص للقراءة

أنشطة ومهام

أسئلة للتفكير والتقييم الذاتي

المحتوي

المقدمة:

- أهمية المكتبة العربية ومصادر التراث

التمهيد:

- من الرواية إلى التدوين

- عصر المخطوطات

-نبذة مختصرة عن أهم المعاجم

- أهم كتب فقه اللغة

- قواعد العربية (النحو والصرف والإملاء)

<u>من مصادر الدراسات البلاغية</u>

- **الكتاب لسيبويه**
- **معاني القرآن للفراء**
- **الأصمعي**
- **البيان والتبيين للجاحظ**
- **الشعر والشعراء لابن قتيبة**

- **الكامل للمبرد**
- **البديع لابن المعتز**
- **نقد الشعر لقدامة بن جعفر**

<u>من مصادر الإعجاز القرآني</u>

- **رسالة النكت للرماني**
- **إعجاز القرآن للباقلاني**
- **إعجاز القرآن لعبدالجبار**

<u>مصادر نقدية أدبية مبنية على أسس بلاغية</u>

- **عيـــــار الشعر لابن طبا طبا العلــوي**
- **الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي**
- **الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني**
- **الصناعتيــن لأبي هلال العسكـــري**
- **العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق**
- **سر الفصاحة لابن سنان الخفـــاجي**

<u>مصادر البلاغة عند عبد القاهر الجرجاني</u>

- **دلائل الإعجاز**
- **أسرار البلاغة**

مصادر البحث البلاغي بعد عبد القاهر

- **الاتجاه الفلسفي**
- **الاتجاه الأدبي**
- **المثل السائر، لابن الأثير**
- **الطراز، للعلوى**
- **البديع والبديعيات**
- **من مصادر الأدب الأندلسي**
- **الذخيرة، لابن بسام**
- **الأمالي لأبي على القالي**
- **المصادر والمراجع**
- **فهرس الكتاب**

https://ketabpedia.com

https://www.noor-book.com

https://elmaarifa.info

المكتبة الشاملة الحديثة

بنك المعرفة

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام علي خير خلقه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه. وبعد..

تراث كل أمة هو ركيزتها الحضارية، فهو جذورها الممتدة في باطن التاريخ. ومن أجل هذا تحرص الأمم الناهضة -في تأصيلها لواقعها الجديد- على نبش هذا التراث، واستحياء ما هو صالح للبقاء منه، وما يمكن أن يكون له دور فعال في بناء واقعها الجديد.

فمن أجل ذلك دأبت أقسام اللغات العربية في الجامعات على أن تقدم لطلابها تعريفًا بالمصادر الأساسية القديمة للدراسات العربية، واصلة بذلك ماضيهم بحاضرهم.

فاللغة العربية من أقدم لغات العالم المعروفة وأعرقها، وأدبها قد لا يضارعه أدب في جماله وغناه، وحسبها أنها لغة التنزيل الحكيم، وهي كثيرة الفروع، عديدة الفنون، تعاقب المصنفون في علومها منذ صدر الإسلام.

وقد كان للقرآن الكريم والسنة الطاهرة الفضل الكبير في حفظها وانتشارها، ورقيها وازدهارها، وتفتق أفكار علمائها عن دراسات لغوية جمة، وأبحاث قيمة حية، وظهور مؤلفات خالدة، فقد كان ولايزال إتقان اللغة وفهم مناحيها سبيلاً إلى فهم خطاب الشارع الحكيم، وتطبيق أحكامه. وكانت من أبرز صفات العلماء وطلاب العلم

استقامة اللسان، وبعده عن النبو واللحن، وسلامة الأسلوب، وأما حسن الأداء، وجمال البيان وبلاغة العبارة وفصاحة اللسان، فهذه أوصاف معتبرة، ومزايا مرغوب فيها، لأنها من أهم عوامل التأثير في المخاطب، والوصول إلى أعماق نفسه ووجدانه.

ونحن في هذا الكتاب نحاول أن نعرض أهم ما يحتاج الباحث إليه من المؤلفات اللغوية والأدبية والبلاغية والنقدية، التي تكون عونًا له على تقويم لسانه، وتحسين عبارته، ومعرفة رفيع أدب لغته، ووجوه جمالها، ودقة صورها النثرية والشعرية، وما يلحق بها من الصناعة البيانية والمحسنات البديعية ... وغير ذلك. ومما لا شك فيه أن بسط القول في علوم اللغة وآدابها ـ لا يكفيه أضعاف هذا المؤلف، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

وسأذكر في هذا الكتاب أهم المعاجم، وأهم كتب فقه اللغة، والنحو والصرف، وأشهر الموسوعات الأدبية، وأهم المجموعات الشعرية، وسأفصل القول في بعض مصادر التأليف البلاغي. وما أراه عونا ومساعدًا للطلاب في دراساتهم اللغوية والأدبية.

في الصفحات التالية نقدم لأبنائنا وبناتنا طلاب قسم اللغة العربية الذين نعدهم ليكونوا سدنة للغة القرآن ما يساعدهم على إلقاء نظرة على مصادر المكتبة العربية، حتى يقفوا على جهود السابقين الذين أثمرت جهودهم، وانتفع بها من جاء بعدهم، بعد أن أضافوا إليها ما يلائم

تطور الزمن، ونرجو الله أن يوفقنا لإتمام ما اضطلعنا بالقيام به، على أحسن وجه وأكمله، ونسأله سبحانه الهدي والسداد، والعصمة والتوفيق، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا.

الدكتورة:

شوزان نشأت عبد الرازق

التمهيد

من الرواية إلى التدوين

لم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك، إن كثرة منهم في الحواضر. وقلة في البادية، كانت تقرأ وتكتب. ولم يعد مناط اختلاف أن بعضًا من آثارهم الأدبية قد دون ، لكنها أحاد لا تبرر التعميم ؛ لأن الشعر أكثر ما يكون في البادية ، والبادية أكثر ما تكون راحلة ، وما يكتب عليه في تلك الحقبة من التاريخ حجارة أو عظمًا أو خشبًا أو أديمًا أو عسيبًا أو قماشًا ، وكان أندرها وأغلاها ثمنا - لا يتهيأ نقله في سهولة ، فقصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية ، من الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق والرسائل المقتضبة ، والكتب الدينية ، والقليل من الشعر ، أما كثرته الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية .

وقد اضطلع الشعراء أنفسهم بدور هام في الرواية، فكانت لهم المدرسة التي يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه، والتمرس بأساليب الكلام وفنون القول، ومن أراد أن يصبح شاعرا لزم واحدا من فحولهم، يحفظه عنه، ويروى له، ويترسم خطاه، ولدينا معلومات لا بأس بها عن اتصال هذه الروايات. كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس بن حجر، وكان كعب بن زهير والحطيئة راويتي زهير، وكان

هدبة بن خشرم العذري راوية الحطيئة، وجميل بثينة راوية هدبة، وكثير عزة رواية جميل، وتكاد الخصائص الفنية لشعر كل منهم تتقارب مع خصائص سابقه ولا حقه، ومن تأمل هذا الإسناد تدرك أن الراوية قد يكون ابن الشاعر أو أحد أقربائه، وقد يكون غريبًا عن القبيلة كلها، فالحطيئة عبسى من مضر وهدبة عذري من حمير. ويصبح دور الراوي أكثر أهمية بعد وفاة الشاعر، لأنه يتعدى مهمة نشر قصائده إلى جمعها، وإظهار الظروف والمناسبات التي أوحت بها، وتفسير الإشارات التاريخية التي تتضمنها، ويصبح بحكم الواقع أمينًا على تراث حياة صانعة ومناط اهتمام القبيلة التي ينسب فيها.

وكان شعراء كل قبيلة وأفرادها يروون شعر أسلافهم، وظهور شاعر كبير في القبيلة مدعاة للفخر، والاحتفاظ بآثاره شيء تفرضه العصبية، وضياعها أمر يمس شرف القبيلة، وأصدقاء الشاعر يستظهرون بعضاً من قصائده وثمة فارق بين حفظ القبيلة وحفظ الراوية، القبيلة تحفظ من قصيد شاعرها ما يعلى شأنها. ويسجل أمجادها، فإذا تعرض لحرب هزمت فيها تناست ذلك الشعر، أو ما يمسها منه على الأقل، وروايتها له لا تجرى على نسق واحد، وإنما ترتبط بأعمار وأفراد القبيلة وأمزجتهم. يحفظ منه الشباب ما كان غزلاً يمس العواطف، ويردد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر، ويتمثل الشيوخ ما كان حكمة ترضى العقل، أما الراوية المحترف فيحفظ ذلك

كله: الغزل والحماسة والحكمة، الرثاء والهجاء والفخر ما بلغ فيه الشاعر القمة أو قصر عن الإجادة.

ويصمت الحديث عن تدوين الشعر وتخف حدة روايته بعد البعثة المحمدية، فقد كان من العسير، والإسلام في نشأته يقيم نظاماً ويؤسس دولة ويضع نماذج جديدة للسلوك العربي، أن تجد فكرة تدوين أو حتى رواية شعر ملئ بالمفاخر القبلية، وبما كان الإسلام ضده، ترحيبًا أو قبولاً من أحد، إلى جانب ما شغل به الناس من غزو وتشريع، وما ملأ وجدانهم من أفكار ومثل. أورد ابن سلام في طبقاته قول عمر بن الخطاب: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» ثم عقب عليه بقوله «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام. وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، ألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل؛ فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم من كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به، فصار ذلك إلى بني مروان أو صار منه». ويأتي ابن خلدون فيعطى الأمر مزيدًا من الإيضاح والتفصيل والتحديد: «انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب

القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا، ثم استقر ذلك، وأنس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره. وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه».

إلا أنه لم يكد النظام الإسلامي يستقر وتتوطد دعائمه، بقدر لا يخشى معه رواية قصيدة أو تبجح قبيلة، حتى عاد الناس يروون ويكثرون من روايته، ويتحدثون عن تدوينه كخاطر يرد في الأذهان أو يمكن أن يتحقق.

فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الأول الهجري، بداية الثامن الميلادي، أصبح بين أيدينا من الدلائل ما يجعل تدوين الشعر أمراً مقررًا. فالخطاط خالد بن أبي الهياج كان يكتب للخليفة الوليد بن عبد الملك المصاحف والشعر والأخبار وسلامة القس كانت تملك بعد وفاة عمر بن أبي ربيعة مجموعة من أشعاره التي يغنى بها. والخليفة الوليد بن يزيد أمر بجمع «ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها». لكن هذا التدوين كان فيما يبدو، عملا عفويا وفرديا، يخضع لأذواق الأشخاص ومتطلبات السياسة. ويخيل إلى أن طريقة الكتابة في البدء. كانت وراء قلة التدوين، وانتشار الرواية، لأنها - رغم الإصلاحات التي أدخلت على النقط والإعجام زمن الوليد بن عبد الملك - لم تكن كافية لرسم النصوص الصعبة المحشوة بالكلمات النادرة، وأسماء الأمكنة

الغريبة، فبقي الاعتماد على الذاكرة أمرًا ضروريًّا لقراءة القصيدة المكتوبة قراءة دقيقة وصحيحة، إلى أن ثبتت فيها بعد قواعد الرسم والإعجام.

ولا نكاد نتجاوز القرن الأول الهجري، ونمضي في الثاني شيئًا، حتى نلتقي بطبقة جديدة من الرواة العلماء، من العرب أو الموالي، يعيشون في الحضر، وعلى دراية واسعة بحياة البدو، يجيدون لغة الأعراب، ويعرفون أساطيرهم وأخبارهم. وأنسابهم، ويتمتعون بذواكر قوية، وعلى اتصال دائم بسكان البادية، يرحلون إليهم في منازلهم، أو يلقونهم في الحواضر، يمتهنون جمع الشعر وحفظه وروايته، ودرسه وتفسيره وإذاعته، ويجمعون إلى مشافهة الأعراب ما قرأوه مدونًا أو تلقوه عن شيوخهم علمًا. والجيل الأول منهم، كابن السائب الكلبي وعوانة بن الحكم "، وحماد الراوية "، لم يدون من روايته شيئا، فقد تكفل هشام بن السائب براوية مأثور أبيه، وكان عوانة كفيفا يملى ولا يكتب، ويقول ابن النديم في كتابه «الفهرست»: «لم يرد لحماد كتاب، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده». بينما آثر الجيل الذي تلقى عنهم الرواية، أو عاصرهم في تلقيها وكان أحدث منهم عهدًا، أن يدون ما سمع، أو يترك لتلاميذه مهمة التدوين. ولم يكن علماء الطبقة الأول يسندون رواياتهم، وكان من بعدهم يرتفع بها إليهم وينتهي عندهم. كان هؤلاء الرواة يتفاوتون فيما بينهم - صدقًا وأمانة ودقة،

تبعًا لتكوينهم الطبقي والعنصري والثقافي، وصمودهم أمام ضواغط البيئة حولهم، سياسية واجتماعية وعلمية، أو استجابتهم لها. حتى إذا استكملت الحياة الثقافية مقوماتها في البصرة والكوفة، تميزت كل منهما بطابع أثر عنها وعرفت به، وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة استهدفت وضع قواعد عامة للغة تلتزمها وتسير عليها فى دقة وحزم، فأهدرت الشواذ، وخطأت بعض العرب ، وإذا اصطدمت قواعدهم بما هو ثابت من صحيح الرواية قالوا يحفظ ولا يقاس عليها بينما احترمت مدرسة الكوفة كل ما جاء عن العرب ، تجيز للناس استعماله ، ولو كان لا يلتزم القواعد العامة ، وهم بهذا أقرب إلى فهم طبيعة اللغة ومنطقها – إن كان للغات منطق ! – وكانت الخصائص العامة لكل مدرسة. لا تظهر في اللغة وحدها، وإنما تتجاوزها إلى ما وراء ذلك من الآثار والأخبار. وأدى التنافس بين المدرستين إلى تعصب كل فريق لمدرسته، واتهام المدرسة الأخرى وتضعيفها، وتبادل العلماء تهم الجهل والوضع والتحريف، أمر يجعل مهمة الباحث أكثر مشقة وهو يوازن بين الآراء والروايات، ينخلها ويصفيها من الدوافع الشخصية والحزازات.

كان رأس هذه الطبقة أبو عمرو بن العلاء، عربي من تميم، مؤسس مدرسة البصرة في النحو وشيخها، وأحد القراء السبعة، ومن أعلم الناس بالقرآن ولغاته وتفسيره وغريبه، وكان إمامًا في الشعر والنحو

واللغة وأيام العرب، ثقة مأمونًا حتى عند الكوفيين، ولد بمكة سنة ٦٩ هـ – ٦٨٩ م، ونشأ في البصرة، وتوفي في الكوفة قافلاً من رحلة إلى دمشق عام ١٥٥ هـ – ٧٧٠ م، وكان أبوه مشهورًا معروفا وقائما على «طراز» الحجاج وجده عمار من أصحاب على بن أبي طالب، رضي الله عنه. وقد مدح الفرزدق الشاعر أبا عمرو بن العلاء وأثنى عليه في أبياته:

ما زلت أفتح أبوابًا وأغلقهـــا حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

حتى أتيت فتي محضًا ضريبته مر المريرة حرا وابن أحرار

ينميه من مازن في فرع نبعتها أصل كريم وفرع غير خـــوار

دوَّن أبو عمرو قدرًا كبيرًا من الشعر العربي، وبخاصة الجاهلي منه، إلى جانب الأخبار المتعلقة به، وطبقًا لرواية أبي عبيدة، فإن ما كتبه «ملأ بيتًا له إلى قريب من السقف، ثم تقرأ - أي تنسك - فأحرقها، ولم يعد يهتم بعد إحراقها إلا بالقرآن ودراساته. ولا يعني ذلك، فيها أرى، أنه أعرض عن الشعر تمامًا، فدراسة القرآن، في تلك الفترة من الزمن، كانت تقوم في جانب منها على تفسير غريب القرآن ومجازه بالشعر، لكن القصة تدل، دون شك، على أن بعض المتنسكين كان يستشعر الحرج في دراسة وتدوين آثار أدبية تمجد من الأخلاق أو تبيح من المحظورات، مالا يرضى عنه الإسلام. إلا أن ضياع كتبه لم

يحرمنا كلية من علمه الواسع، فقد كان لـه طـلاب كثيـرون تثقفـوا مـن علمه، ونـهلوا من فيضه، وحفظوا كثيرًا ممـا روى ومـا جمـع، ونقلـوه إلينا شفاها، أو مدونا بيد طلابهم فيما بعد.

ثم خلفه في مدرسة البصرة أنجب تلاميذه خلـف بـن حيـان، ويكنـى أبـا محـرز البصـرى، ويعـرف بخلـف الأحمـر، (ولـد ١١٥ هـ = ٧٣٣ م وتوفى ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م، من أبناء الصغد من فرغانة، سباهم قتيبـة بن مسلم البـاهلي أثنـاء افتتـاح بـلاد مـا وراء النـهر، وجـيء بهـم إلـى البصرة، وكان خلف مولى أبي بردة بن أبي موسـى الأشـعري، فأعتقـه وأعتق أبويه. وأمضى طفولته، في أوساط البصرة العلميـة، أخـذ اللغـة عن أبي عمرو بن العلاء وأخذ النحو عن عيسى بن عمـر النحـوي (ت ١٤٩ هـ = ٧٦٦) وجمـع علمًـا كثيـرًا، فكـان عالمًـا بالغريـب والنحـو والأنساب والأخبار، شاعرًا كثير الشعر جيده، ولم يكن بين نظرائه مـن هم أكثر شعرا منه، وله خطرات نقدية صائبة.

«سئل: من أشعر النـاس؟ فقال: ما ينتـهي هذا إلى واحد يجتمـع عليـه، كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل النـاس. فقيل لـه: أيهم أعجب إليك يا أبا محرز؟ قال: الأعشى». فهو لا يرتضـى مـا كـان شائعاً في عصره مـن نقـد يقـوم علـى الخـاطرة والـذوق والـهوى دون احتياط أو استقراء أو تفصيل في التعليل، وعنه تصدر أحكـام التفضـيل المطلق للبيت أو القصـيدة أو الشـاعر، ولكنـه لا يتـردد فـي أن يصـرح

بمن يلتقي مع هواه من الشعراء، حق يراه لغيره، كما ارتضاه لنفسه الشعراء، وبتقريره يستحيل أن يلتقي الناس على رأى إذا ما سئلوا: من هو أعظم الشعراء.

كان خلف أول من أحدث السماع في البصرة ، وقرأ عليه أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه أكثر الأخذ عنه وبلغ مبلغًا لم يقاربه حماد ، وأجمع الناس في الكوفة والبصرة على الإقرار بمعرفته الدقيقة والواسعة بالشعر الجاهلي ، وقدرته المصيبة على تمييز الصحيح من المنحول ، يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانًا ، كنا لا نبالي إذا أخذنا خبرا ، أو أنشدنا شعرا ، ألا نسمعه من صاحبه ويذكر ابن النديم في « الفهرست » أن له « كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر » ، وقد ضاع الكتاب نفسه ، ولكن الجاحظ احتفظ بفقرات منه في كتابه « الحيوان » . وكان خلف شاعرًا، ويروى ياقوت في كتابه «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»: «أن له ديوان شعر حمله عنه أبو نواس»، ويكثر قول الشعر في وصف الحيات، وأراجيزه في ذلك كثيرة، وما وصلنا من شعره يعكس مقدرة فائقة على النظم، ولا يدل على موهبة شعرية حقيقية.

وقد مر خلف بالأزمة النفسية التي بها أستاذه أبو عمرو بن العلاء من قبل، فنسك وتقرأ في أواخر حياته، وكان يختم القرآن في كل يوم

وليلة. «وبذل له بعض الملوك مـالاً عظيمًـا خطيـرًا علـى أن يـتكلم فـي بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك، وقال: قد مضى لي في هذا مـا لا أحتـاج إلى أن أزيد فيه».

اتهم خلف، كما اتهم غيره، بالوضع والنحل، فقيـل إنـه كـان يعمـل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليـه، وأنـه وضع على شعراء عبد القيس شـعرا موضـوعا كثيـرًا، وعلـى غيـرهم، عبثا بهم، وأنه نحل أبا دؤاد الإيـادي أربعين قصـيدة، وكـان يأخـذ مـن حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ويعطيه المنحول، «فيقبل ذلـك منى ويدخله في أشعارها، وكان فيـه حمـق»، وأنـه نظـم لاميـة العـرب المشهورة، التي أولها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ** فإني إلى قوم سواكم لأميل

ثم نسبها إلى الشنفري، كما صنع القصيدة التي مطلعها:

إن بالشعب إلى جنب سلع *** لقتيلاً دمه ما يطـــل

ونحلها ابن أخت تأبط شرا، «فلما تقرأ ونسك خـرج إلـى أهـل الكوفـة، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار النـاس، فقالوا لـه: أنـت كنـت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقـي ذلـك فـي دواوينـهم إلـى اليوم». هذه الفقرة الأخيرة تكشف في جلاء قيمة الروايات التي ترمـى خلفاً بالوضع، وتنزع القناع عن الأسباب التـي وراءهـا، فليس خلـف

هدفا في ذاته، إنما الهدف المدرسة الكوفية وعلماؤها، فما داموا قد تلقوا عنه، وسمعوا منه، فلابد أن يكون وضاعًا، ويصبح بين يدي الكوفيين من روايات موضع شك ومطعونا في صحته. والرواية تفضح نفسها بنفسها، فمن العجيب أن يمضي عالم إلى قوم أخذوا فيدلهم، حقًا أو افتراضًا، على ما زل منه عفوًا أو قصدًا، فيرفضوا تصحيحه، ويعرضوا عن اعترافه، ويبقوا على زيفهم، ويصير ذلك في دواوينهم إلى اليوم "!

أكثر تلاميذ أبي عمرو بن العلاء ثقة وشهرة هو الأصمعي، عبد الملك بن قريب، من أصل عربي ينتسب في باهلة، الضاربة في الجنوب الشرقي من البصرة، ولد ١٢٢ هـ = ٧٣٩ م، وتوفي عن تسعين عاما في ٢١٥ هـ = ٨٣١ م، ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة ، وأكثر الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب ونقل عنهم ، وربما استغرقت رحلته إليها سنوات ، وأمضى جانبًا من حياته في الحجاز وبغداد . فأكسبه ذلك علمًا واسعًا بالجاهلية، لغاتها وأخبارها وأشعارها، فاكتسب مكانة ممتازة في الأوساط الأدبية كأستاذ وعالم، وكان موضع إجلال الخليفة هارون الرشيد، وكافأه مرة بعشرة آلاف درهم لأنه أجاد في وصف فرس له. مستدلا على كل صفة ببيت من شعر جرير بن عطية الخطفى الشاعر المشهور. وتميز عن سابقيه بتقواه العظيمة، شديد الاحتراز في تفسير القرآن والحديث، فإذا سئل

عن شيء منها يقول: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة، وخلال فتنة خلق القرآن، اعتزل الناس وقبع في بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه فأحتج بضعفه وكبر سنه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورئي بعد ذلك راكبًا حمارًا دميمًا، فقيل له: «أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال: هذا وأملك دينى أحب إلى من ذاك مع فقده.

كتب الأصمعي كثيرًا، في مجالات مختلفة، وتبلغ مؤلفاته اثنين وأربعين مصنفا بينها كتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النوادر. وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع، ورويت عنه دواوين كثيرة، منها ديوان امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة، وعلقمة الفحل، وله مجموعة مختارة من الشعر القديم تحمل اسمه «الأصمعيات».

في الجانب الآخر كان حماد رأس مدرسة الكوفة، واسمه حماد بن سابور. وشهرته حماد الراوية، وإليه وحده تتجه كلمة «الراوية» إذا أرسلت. من أصول فارسية، وقع أبوه سابور أسيرًا في الحرب، وينتمي إلى أسرة محاربة من الديلم. وقد ولد حماد في الكوفة في عام ٩٥ هـ = ٧١٣ م ، وتوفى فيها مغمورًا عام ١٥٦ هـ = ٧٧٤ م ، وعبر التاريخين أمضى حياة عاصفة مضطربة ، فكان في بدء حياته لصًا يتشطر، فنقب بيتًا على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر

الأنصار ، فلما قرأه استحلاه وحفظه ، ثم ترك التشطير ، وأقبل على الأدب والشعر والأخبار ولغات العرب ، وكان مع حماد عجرد الشاعر ، وحماد بن الزبرقان النحوي يكونون في الكوفة ثالوثًا مزعجًا ، يعيش حياة لاهية ، منطلقة غير مسئولة ، ويرمون جميعا بالزندقة ، وتثير حياتهم نقمة الطبقة المحافظة ، وكثيرا ما كان يلقى بهم في السجن فلا يبرحونه إلا بعد شفاعة من كبير يمدحونه ، وكانوا مع يحيى بن زياد الحارثي ومطيع بن إياس يتهاجون ويتغزلون ، ويقولون شعراً لا يخلو من رقة وبساطة شفاعة

كان حماد يتمتع بذاكرة قوية حافظة، تعجبه الأسطورة، ويهوى النادرة، يستطيع أن يسترجع مئات القصائد المطولة من الشعر الجاهلي، وأن يميز بينها وينسبها إلى قائليها، و «المعلقات» التي بين أيدينا من روايته، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها وهو الذي جمع السَّبع الطوال فيما ذكره أبو جعفر النحاس.

وكانت ملوك بنى أمية تُقَدّمه وتؤثره، فيفد عليهم وينال منهم ويسألونه عن أيام العرب وعلومها... قال له الوليد بن يزيد الأموي يوماً: بَم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به.. ثم لا ينشدني أحد شعرًا قديمًا

ومحدثًا إلا ميزت القديم من المحدث.. فقال له الوليد: فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ ... فقال: كثير، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعراء الجاهلية دون شعراء الإسلام، فقال الوليد: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد حتى ضجر الوليد ثم وكَّلَ به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية. وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم..

وكان إلى جانب ذلك شاعرًا ممتازًا، وروى له الأصمعي شيئًا من شعره، وأحيانًا عامدًا أو ناسيًا يخلط شعره بشعر غيره، ومن المؤكد أن طبيعة العبث فيه كانت تتجاوز حياته الخاصة إلى نشاطه العلمي فأصبحت نزاهته موضع شك وجدال عنيف.

كان المفضل الضبى (ت ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م)، وهو كوفى مثله، يقول عنه فى مرارة: لقد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن؟ قال : « ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وشعرها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »

ويقول ابن سلام «في طبقات فحول الشعراء»: «كان أول من جمع العرب وساق أحاديثها: حماد الراوية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار». ويضيف ابن سلام: «وسمعت يونس (ابن حبيب) يقول: العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ويلحن ويكسر».

ولكن الحملة على حماد رغم كل شيء ، يجب أن تؤخذ في حذر شديد ، ونحن نميل إلى أن نعد أكثر ما اتهم ، به حماد موضوعًا ، دعت إلى وضعه عوامل عدة منها : هذه العصبية التي كانت متأججة بين البصرة والكوفة ؛ ومنها تلك المنافسات والخصومات الشخصية كالتي كانت بين المفضل وحماد ، ومنها العصبية السياسية ، فقد كان حماد أموي الهوى والنزعة ، وكانت دولة بني أمية قد ولت وأقبلت دولة جديدة تناصبها العداء ، وتريد أن تمحو محاسنها وآثارها ، وتحط من قيمة من اشتهر فيها أو نال لديها حظوة ، ومنها : أن حمادًا كان - باعتراف الرواة - كثير الرواية واسع الحفظ ، فكان يروى ما لا يعرفه غيره ، ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهموه بالتزيد والوضع . وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجنا مستهترًا بالشراب مفضوح الحال» [1]

[1] مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، ص ٤٥٠

الرجل الثاني في مدرسة الكوفة ، ويلى حمادًا الراوية في العلم ، ويسبقه في الثقة ، هو المفضل الضبي ، أبو عبد الرحمن المفضل بن محمد بن يعلى ، من أصل عربي ، ولد في فارس حيث كان أبوه من موظفي الديوان ، وشارك في ثورة العلوى إبراهيم بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ضد الخليفة المنصور، وأجاره في بيته زمنا، وقد سجن ثم أخلى سبيله فيما بعد ، وأصبح أستاذا للمهدي ابن الخليفة ، كان عالمًا بأخبار الجاهلية وأنسابها ، راوية للشعر وأيام العرب ، قال عنه ابن سلام : « أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » وتتلمذ عليه جلة من كبار رواة عصره وعلمائه ، فكان من تلاميذه : أبو عمر إسحاق بن مرار الشيباني ، وابن العربي ، والفراء ، وخلف الأحمر ، وأبو زيد الأنصاري البصري وغيرهم . وترك لنا كتابين: الأول «المفضليات» مجموعة رائعة من الشعر الجاهلي، والثاني «كتاب الأمثال» والراجح أنها من روايته، وأن الذي تولى عملية الجمع والتدوين هم تلاميذه من بعده. وقد توفى المفضل في الكوفة في بدء خلافة هارون الرشيد حوالي عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م.

كان هؤلاء هم الطبقة الأولى من العلماء الرواة، وقفوا جهدهم على رواية التراث العربي، حين لم تكن الكتابة أداة حفظه الأولى، يجمعون ما تبعثر من خبره، وينخلون ما اختلط من أمره، وإليهم تسند روايته،

وهم يذيعونه بين تلاميذهم في حلق الدرس، ويجادلون حوله في مجالس السمر. فصنعوا الطبقة الثانية، تسمع منهم، وتعي عنهم، وتحفظ مأثورهم وتقيده أحيانًا.

عصر المخطوطات

أقدم مخطوط عربي وصل إلينا وقد كتب على الورق البردي كان في الحديث، اسمه غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام. ومع بداية عصر النهضة اقتبست دول الغرب صناعة الورق من العرب عن طريق الأندلس انتقل إلى فرنسا وعن طريق صقلية الإسلامية انتقل إلى إيطاليا، وعنهما انتشر في بقية أنحاء أوروبا، ومن الأخطاء التاريخية الشائعة القول بأن معرفة أوروبا للورق تعود إلى الحروب الصليبية.

ومع بداية الدولة العباسية بلغت الإمبراطورية الإسلامية قدرًا عاليا من الرقي العقلي والثراء المادي، وبدأ ذلك كله يُؤتي ثماره، دقة في العلم وإقبالا عليه، وحبًا للثقافة وتقديرًا لها، وولوعا بالكتب واقتنائها.

فمنذ عهد مبكر من قيام الإسلام أصبحت المدرسة، ممثلة في المسجد أصلا أو في بناء ملحق به، مناط اهتمام الدولة والأفراد.

وفي القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أحس الناس أن التعليم الابتدائي لم يعد كافيًا فتأسس ما يمكن أن نسميه بالمدرسة الثانوية، فالمدارس الأولية تدرس الكتابة والقراءة والقرآن ومبادئ الحساب،

وشيئًا من الشعر، والمدارس الثانوية تدرس النحو واللغة والأدب والمنطق والرياضيات ومواد أخري.

ثم أصبح التعليم الثانوي وكأنه غير كاف لتلبية حاجات الناس العقلية، فأنشأ الخليفة المأمون أول معهد للتعليم العالي في الإسلام سماه بيت الحكمة، ثم أسس الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظامية في بغداد وكانت الحكومة تتولي الإنفاق عليها، ويُدرس فيها القرآن والحديث والفقه طبقا للمذهب الشافعي وعلم اللغة والأدب والمعمار والجغرافيا والتاريخ والفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقي والجبر،

وكان طلبة المدرسة يتمتعون بالمسكن والمأكل مجانًا، والكثير منهم يتلقى فضلاً عن ذلك مكافآت شهرية وظل الإمام الغزالي يشغل أحد كراسى الأستاذية فيها مدة أربع سنوات من ١٠٩١ إلى ١٠٩٥، وعاشت المدرسة النظامية بعد سقوط بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨ م، كما عاشت بعد غزوات التتر الأخيرة، ثم اندمجت في معهد عال آخر هو المستنصرية.

تنسب المستنصرية إلى الخليفة المستنصر ، وقد أسسها في بغداد عام ١١٣٤ م وكانت ذات صبغة إسلامية دولية ، إن صح التعبير ، فهي تدرس المذاهب الفقهية الأربعة ، واعترفت بها الدولة رسميا للفتوى طبقا لتعاليم هذه المذاهب ، وكان على مدخلها ساعة ، من المؤكد أنها ساعة مائية ، ومزودة بمساكن للطلاب وحمامات ومطابخ ، وملحق

بها مستشفى ومكتبة ، ولا يزال بناؤها قائما حتى يومنا هذا ، ويكاد يكون الأثر المعماري الوحيد القائم من أيام العباسيين وكان هذا المعهد ، في تنوع ثقافته ، وتعدد أقسامه ، وصبغته الإسلامية الدولية ، الشيء الذي قلده الغرب عند إنشاء جامعة باريس في القرن الثالث عشر الميلادي ، فكانت تمثل أربع دول مسيحية ، ثم أصبحت المثل الذي احتذته كل الجامعات الأوربية في العصر الوسيط ، وما تقوم به منظمة الأونسكو . الآن على الصعيد الثقافي الدولي، وبوسائل أكثر عصرية وشمولاً، شبيه بما كانت تقوم به المدرسة المستنصرية بين المسلمين في العصر الوسيط.

وأنشأ الحاكم الفاطمي دار الحكمة في القاهرة عام ١٠٠٥ م وألحق بها مكتبة سميت دار العلم وكانت مخصصة لدراسة فلسفة المذهب الشيعي والتعريف به. إلى جانب العلوم الأخرى، وظلت قائمة حتى مجيء الأيوبيين، كما أن الخليفة العزيز حول الجامع الأزهر إلى جامعة علمية، تضم من أنواع التعليم أقسامه الثلاثة: الابتدائي والثانوي والعالي.

كان الإملاء يعتبر أعلى مراحل التعليم ، وبخاصة في القرن الثالث الهجري ، وفي القرن الرابع ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدثين في الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه الطلبة ، وآخر من أملى من اللغويين ، فيا يقال ، هو أبو القاسم الزجاجي ،

المتوفى سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م ، وكان الأستاذ يعود أحيانًا إلى ما أملاء فيراجعه ، وقد يزيد عليه ، وكان للطالب أن يسأل المدرس ، وكان عدد الطلاب يعرف بإحصاء محابرهم التي يضعونها أمامهم ، وهي أهم عتاد الطالب ، وفى محاضرات كبار الأساتذة كان يتراوح عدد الطلاب بين ثلاثمائة وسبعمائة طالب ، وللطالب أن يسأل أستاذه ، وبعض الأساتذة كان يضيق بطلابه حين تنبئ أسئلتهم عن جهل أو سُخف . حكى أن طالبًا سأل أبا عبيدة اللغوي سؤالاً يدل على سوء الفهم، ثم تلاه ثان وثالث فسألا على نفس المستوى، فأخذ أبو عبيدة نعليه، واشتد ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته: من أين حشرت البهائم على اليوم!

لكن ذلك لم يمنع الطلاب أن يقولوا آراءهم في أساتذتهم، في إطار من الصراحة والاحترام، وقد أورد صلاح الدين الصفدي في كتابه «نكت الهميان في نكت العميان» رأى ياقوت في أستاذه المبارك بن المبارك، المتوفي عام ١٢١٥ م، وكان أستاذ النحو في مدرسة النظامية، فقال عنه إنه «قليل الحظ مع التلامذة يتخرجون عليه ولا ينسبون إليه، ولم يكن فيه عيب، إلا أنه كان فيه كيس ولين ، فإذا جلس للدرس قطع أكثر أوقاته بالأخبار والحكايات وإنشاد الأشعار، حتى يسأم الطالب منه ، وينصرف عنه وهو ضجر ، وينقم ذلك عليه . رغم أنه كان يجيد عددًا من اللغات الأجنبية من بينها التركية والفارسية والرومية

والحبشية والزنجية، وكان إذا قرأ عليه عجمي واستغلق عليه المعنى العربي فهمه إياه بالعجمية.

حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري :

ومنذ مطلع القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، شهد العالم الإسلامي. حركة ترجمة نشيطة، وكان يشترط في المترجم أن يكون على مستوى رفيع في إجادة اللغتين، وأن يكون مُلمًا تمامًا بالموضوع الذي عالجه المؤلف، وألا يكون أسلوبه في الكتابة أحط. مرتبة من أسلوب المؤلف، وأن يكون قادرًا على استخدام الألفاظ والتعابير القريبة إلى الأصل المترجم عنه، مع المحافظة على سلامة التعبير، وصحة القواعد، وجودة الأسلوب في اللغة المترجم إليها. وربما أعيدت ترجمة كتاب مرة أخرى، على نحو أكثر دقة من ترجمته التي بين يدي الناس. وفي البدء كان المترجمون يستخدمون الترجمة الحرفية. بنقل الجملة من لغة إلى لغة ثانية كلمة كلمة، وكانت حصيلة هذه الطريقة عدداً من الكتب الرديئة الترجمة وغير المفهومة، فلما انتهى الأمر إلى شيخ المترجمين حنين بن إسحاق قضى على هذه الفكرة، وأعطى الحياة الثقافية طريقة أصح منهجًا، تنهض على أساس. المعنى الصحيح نقلاً دقيقًا مضبوطًا.

ولا يجاري النهم الذي عرف به المسلمون في الإقبال على العلم ، واحتواء تجارب الآخرين ، غير إقدامهم على اقتناء الكتب ، وكانت

المساجد تؤدى إلى جانب مهمة المدرسة مهمة المكتبة العامة ، وتميزت مكتبات المساجد بغناها، بفضل ما يهدى إليها من كتب ، وكان الخطيب البغدادي المؤرخ المشهور (١٠٠٢ – ١٠٧١ م) من بين من وقفوا كتبهم على المسلمين وكلما استقلت المعاهد العالية عن المساجد دون أن تضعف الدراسة في هذه ، حدث الشيء نفسه فيها يتصل بالمكتبات ، فبدأ الأغنياء يقيمون مكتبات عامة ، تضم كتباً في المنطق والفلسفة والأدب واللغة والشريعة ، يتردد عليها أولئكم العاجزون عن شراء الكتب أو الذين لا يتيسر لهم الحصول عليها .

وأول مكتبة عامة أقيمت في الإسلام كانت بالقرب من بيت الحكمة في بغداد. ثم أخذت كبريات المدن في الإمبراطورية تحذو حذوها، فلم تلبث مدينة الموصل أن أنشأت مكتبتها العامة قريباً من عام ٩٥٠م، حيث يستطيع الطلاب أن يستعيروا ما بها من مؤلفات، كتبًا كاملة أو في شكل ملازم.

وأنشأ الخليفة العزيز بن المعز لدين الله الفاطمي، المتوفى ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م ، مكتبة عامة ألحقها بقصره ، وتضم من الكتب ١،٦٠٠،٠٠٠ مجلد ، ورواية أبي شامة في كتابه « الروضتين » ترتفع بالعدد إلى مليونين، وكانت تحتوى على مصنفات في الفقه واللغة والحديث والتفسير والفلك والكيمياء ، عدا المصاحف ، وكان بعض الكتب مكتوبًا بخط ابن مقلة ، وعلى بن هلال المعروف بابن البواب ،

وغيرهما من مشاهير الخطاطين ، وعندما جاء ذكر كتاب العين للخليل بن أحمد أمام الخليفة العزير أمر أمين المكتبة أن يجي ، بما في المكتبة من نسخه ، فجاء منه بنيف وثلاثين نسخة ، منها واحدة بخط الخليل بن أحمد نفسه وحمل إليه وراق نسخة من تاريخ الطبري فاشتراها بمائة دينار ، رغم أن المكتبة كانت تضم منه ما يربو على عشرين نسخة ، منها واحدة بخط المؤلف نفسه وفيها ما يزيد على مائه من كتاب « الجمهرة » لابن دريد ، وكان الخليفة إذا زار المكتبة ترجل إجلالاً للعلم .

ولم يكن الغرب الإسلامي أقل عناية بالكتب، فأنشأ عبد الرحمن الداخل مكتبة في قرطبة، أخذت تزداد وتتسع في عهد خلفائه من بعده. وبلغت شهرة عالمية في عهد عبد الرحمن الناصر ، فلما أراد الإمبراطور البيزنطي أن يهادي خليفة قرطبة بشيء يدخل البهجة على نفسه ، أهدى إليه كتابًا جديدًا هو Dioscorides وكان مكتوبًا في اللغة اليونانية ، فطلب إليه الناصر أن يوافيه بمن يقوم بترجمته إلى العربية ، فأرسلت إليه القسطنطينية الراهب نيكولاس ، Nicolas ، فلما توفي الناصر ، ثم الأمير محمد من بعده ، ضم الحكم مكتبتيهما إلى مكتبته فصارت أكبر مكتبة في الأندلس ، وبلغ عدد مجلداتها في خبر لا يرقى إليه الشك : ٤٠٠،٠٠٠ مجلد ، وكتبت فهارسها في ٤٤ كراسة ، في كل واحدة ٥٠ ورقة ، منها عشرون . . . مخصصة للدواوين

الشعرية فحسب ، وكان الحكم ، وهو من الخلفاء العلماء القارئين ، يستخدم شخصيًّا الكثير من هذه الكتب ، وكثيرًا ما يدون ملاحظاته وتعليقاته على هوامش المخطوطات ، فأصبحت ذات أهمية عظيمة في نظر العلماء المتأخرين.

دور المكتبات الخاصة في نشر الثقافة

وإلى جانب المكتبات العامة كانت هناك المكتبات الخاصة تسهم في نشر الثقافة، وتعميق المعرفة. وأقدم مكتبة خاصة نعرفها كانت عند خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٨٥ هـ، حكيم آل مروان وعالم قريش وأقام على بن يحيى المنجم، حوالي منتصف القرن الثالث الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته، وسماها «خزانة الحكمة»، وكان يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها. «والكتب مبذولة لهم، والصيانة مشتملة عليهم» والنفقة في ذلك من مال صاحبها. وعندما صودرت أموال حبشي ابن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد، عام ٣٥٧ هـ = ٩٦٧ م، كان من جملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف مجلد، سوى الأجزاء وما ليس بمجلد. وعندما استدعى السلطان نوح بن منصور الساماني الصاحب بن عباد (ت ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) ليوليه الوزارة، اعتذر بأنه لا يستطيع حمل أمواله، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر. وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات، «وهي أكثر

من كل ما في مكتبات أوربا العامة والخاصة مجتمعة في العصر الوسيط». وترك الواقدي المؤرخ، صاحب كتاب «المغازي»، عند وفاته ٦٠٠ صندوق من كتبه، يحتاج الواحد منها إلى عشرة أشخاص.

وعرفت الأندلس نوعا آخر من هواة الكتب ، أولئكم الذين يطلبونها وجاهة ، ويضعونها في منازلهم تزينا ، روى المقري في «نفح الطيب » على لسان أندلسي : " أقمت بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، وهو بخط فصيح وتجليد مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المنادي بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا أرنى من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . قال ، فقال لي : لست بفقيه . ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها، لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.

وكانت هناك قواعد لإعارة الكتب يلتزمها الطلاب، أوردها ابن جماعة في كتابه «تذكرة السامع»، وعنه ننقل نصها: «ينبغي لطالب العلم أن

يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النافعة ما أمكنه، شراء أو إجارة أو عارية، لأنها آلة التحصيل. ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم، ونصيبه من الفهم. وإن أمكنه تحصيلها شراء فلا يشتغل بنسخها، لأن الاشتغال بالدرس أهم من النسخ، ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تحصيله ملكا أو إجارة.

وإذا استعار كتابًا فلا يبطئ به من غير حاجة وأن يشكر للمستعير ذلك ويجزيه خيرا، وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصباً له، وقد جاء في دم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نظماً ونثرًا.

ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره، دون إذن صاحبه، إلا في القرآن، فإن كان مغلوطاً أو ملحوناً وجب إصلاحه. فإن لم يكن خطه مناسبًا أمر من يكتب ذلك بخط حسن، ولا يعلق عليه: ولا يكتب شيئًا في بياض فواتحه أو خواتمه، إلا إذا رضى صاحبه، ولا يعيره غيره، ولا يودعه لغير ضرورة، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه، فإن كان الكتاب وقفًا على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط. وإذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشا منشورًا، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي الكتب المعروف، كيلاً يسرع تقطيع حبله، ولا يطوى حاشية الورقة وزاويتها كما يفعل كثير من الجهلة ولا يعلم بعود أو شيء جاف، بل بورقة أو نحوها. وإذا استعار كتابًا

فينبغي أن يتفقده عند إرادة أخذه من ورقة محتاج إليها ونحوها. وإذا اشترى كتاباً نظر أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه واعتبر صحته».

سيكون مرهقًا أن نتتبع تاريخ المكتبات الخاصة، وحسبنا القول إنها كانت إحدى ملامح المجتمع البارزة، وعندما يبلغ الناس هذا القدر. اقتناء الكتب عندهم أمرًا ضروريًا، تفرضه طبيعة الحياة والتقدم، في مجتمع طافح بكبار الأغنياء وأصحاب الثروات الضخمة، يبدأ التفنن في الكتابة وزخرفة الكتب وتجميلها. وكان المانوية أول من عنى بزخرفة الكتب بالذهب والفضة، ثم تبعهم أصحاب الحلاج، الذي قتل عام ٢٠٩ هـ = ٩٢١ م، فكانت كتبهم تخط على ورق صيني، وبعضها يكتب بماء الذهب، ويبطن بالديباج والحرير، ويجلد بالأدم الجيد. وفي القرن الخامس الهجري أهدى للوزير نظام الملك مصحف بخط أحد الكتاب المجودين. وقد خط كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالمداد الأحمر. وتفسير غريبه بالأخضر، وإعرابه بالأزرق. وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للاقتباس في العهود والمكاتبات، وآيات الوعد والوعيد، وما يكتب في التعازي والتهاني.

أدت هواية الكتب إلى قيام عدد من الصناعات والحرف المتعلقة، من النساخ، والخطاطين، والمجلدين، والمزخرفين. وكان هؤلاء النساخون يتفاوتون علماً ومقامًا، وبينهم من بلغ رتبة الوزارة كابن مقلة، وكان

أبو على القالي، العالم اللغوي الذائع الصيت ينسخ الكتب النادرة والهامة في مكتبة الحكم، ويراجع نسخ بقية الخطاطين، وكان بينهم عدد من الخطاطات حفظ لنا التاريخ منهن اللغوي يجمعون أو فصلات أسمي: لبنى وفاطمة.

وكان ارتفاع أثمان التجليد يجعل عشاق الكتب، والقائمين على المكتبات يجمعون عددًا من الكتب في مجلد واحد، وأحيانًا عددًا من أجزاء لكتب مختلفة أو فصلات من هذه الكتب، ومن هنا فإن فهارس المخطوطات غير المستأنية التي تصدرها المكتبات الكبرى على امتداد العالم المعاصر تعريفاً بالمخطوطات العربية، لا تصور الواقع تصويرًا دقيقًا، فقد يكتفى في التعريف بذكر عنوان الكتاب الأول أو بالعناوين البارزة خلال المجلد، وغالبًا ما تغفل عن الأجزاء الصغيرة الحجم، أو المهملة العنوان.

وظهرت حوانيت الكتب لتلعب دورًا تجاريًّا هامًّا، وتؤدي رسالة تربوية لها أهميتها، ويذكر اليعقوبي المؤرخ أن بغداد على أيامه، عام ٨٩١ م. كان فيها ما يزيد على مئة حانوت لبيع الكتب، مجتمعة في شارع واحد، وكان الكثير من هذه الحوانيت، كنظائرها في القاهرة في الثلاثينات من هذا القرن. أماكن منخفضة متصلة بالمساجد، وكان بعضها من الكبر بحيث يصبح المكان المفضل للعلماء وهواة الكتب.

وكان باعة الكتب أنفسهم من الخطاطين والناسخين والمشتغلين بالأدب غالبا. ولم تكن حوانيتهم مخازن للكتب أو النسخ فحسب، وإنما مراكز للمناقشات الأدبية والعلمية أيضا، وكانوا يحتلون في المجتمع مكانا بارزًا، وياقوت بن عبد الله الحموي (١١٧٩ - ١٢٢٩ م)، صاحب كتابى «معجم البلدان» و «معجم الأدباء»، بدأ حياته الأولى ينسخ الكتب ويبيع المخطوطات.

وكان ابن النديم المتوفي عام ٩٩٥م أميناً لإحدى المكتبات، أو بائع كتب.. ومن ألقابه «الوراق»، ونحن ندين له بكتابه العظيم " الفهرست " ويذكر لنا فيه أن عراقيًّا من هواة الكتب كانت تضم خزائنه مجموعة قيمة من المخطوطات، من بينها ما هو مكتوب على الرق، والبردي والورق الصيني، واللفائف الجلدية، وكل مخطوط منها يحمل اسم ناسخه، وقد أجاز صحتها خمسة أو ستة أجيال من العلماء

ولم تكن الطبقة الدنيا محرومة من الكتب والثقافة إذ كان أبناؤها، والبنات بصفة خاصة، يعملون في نسخ المخطوطات مقابل رواتب عالية. وكان العالم إذا لم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب، فكان أبو العباس الأصم، المتوفى عام ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م، من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم، إذا ذهب إلى المسجد لإلقاء درسه امتلأت عليه الطريق بالناس، فيقومون له، ويحملونه إلى المسجد على عواتقهم، ولم يكن يأخذ على تدريسه أجرًا، وإنما كان يعيش من نسخ الكتب.

وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا، فكان ابن المطران المتوفي عام ١١٩١م، محباً للقراءة، وناسخا ممتازًا، يكره شراء الكتب، ويؤثر نسخها بنفسه.

الشروط الواجب توافرها فى الناسخ:

ولم يكن أي ناسخ ينسح أي كتاب، لأن الناسخ لابد أن يكون ملماً بالموضوع الذي ينسخه، وكان النساخ بحكم التجربة يعرفون أن هناك مخطوطات أقرب إلى النص الأصيل من غيرها.

وكان المؤلف يعهد بالكتاب إلى أحد أصدقائه، أو تلاميذه، أو نساخين محترفين، أو وراقين لينسخوا له نسخة خاصة، أو عددًا من النسخ للبيع، وفي أحايين قليلة وخاصة، كان يعهد به إلى أكثر من واحد، كما حدث عند نسخ تاريخ دمشق لابن عساكر، وكان في ثمانين مجلدًا. فقد اختير لهذا العمل عشرة من النساخين انتهى كل منهم من نسخ ما سلم إليه في سنتين، وهي مدة غير طويلة.

وبعض الوراقين كان يؤجر الكتب لمن يرغبون في قراءتها أو استنساخها مقابل دفع شيء من المال. وقد أورد لنا ابن الداية، أبو جعفر أحمد بن يوسف المتوفي ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م في كتابه «المكافأة» قصة إسحاق بن نصير العبادي، وكان من كتاب الخراج في مصر، وأمضى طفولته في بغداد فقيرًا معدمًا نهمًا إلى العلم، يذهب كل عشية راجلاً إلى دكان وراق، فيستعير منه الكتاب بعد الكتاب، فإذا

اقتضاه كراء ما نسح منه. ألح عليه أن يمهله إلى أن يجد عملاً يدر عليه بعض المال.

حقوق التأليف

ولم تكن للتأليف حقوق مقررة، والعلم خالص للمجتمع، ويمكن لأي إنسان ينسخ أي كتاب لنفسه، أو ليبيعه لغيره، وفي مقابل ذلك كانت الدولة تبسط حمايتها على المفكرين، فتجري عليهم أرزاقها، ومن العلماء من كان يرفض الراتب المقرر له، اعتزازًا منهم باستقلالهم، ويستعيضون عنها بالعمل الذي يدر عليهم رزقًا يقوم بحياتهم. والكثيرون من الأغنياء، وأعطينا لهم بعض المثل من قبل، كانوا يمضون حياتهم وينفقون أموالهم في اقتناء المخطوطات وتوسيع مكتباتهم، وكانت المؤلفات تنتشر على نحو أوسع مما هي عليه في عالمنا الحديث رغم المطابع، ويسر الورق، وسهولة المواصلات.

وكانت الدولة تضع في المقام الأول من عنايتها نشر الآداب والعلوم والفنون ورعاية الكتاب والأدباء والمفكرين، وكان هؤلاء يتمتعون، بصفة عامة، بحرية فكر غير محدودة، ولقد درس الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» العقائد التي كانت سائدة في عصره في حياد دقيق، لا يمكن أن تجد له مثيلاً.

ويقص ياقوت، أن شيخه مبارك بن المبارك، أستاذ النحو في مدرسة النظامية، لام أمين إحدى خزائن الكتب، لأنه أتلف نسخة من كتاب المعرى في نقد القرآن.

لكن حظ الثقافة الإسلامية كان تعسًا، فضاع الجانب الأكبر من هذه المخطوطات أثناء الاضطرابات السياسية، وخلال عصر الاحتضار. ضاعت مكتبة العزيز المصرية خلال الفتنة التي حدثت عام ١٠٦٨ م حيت عم القحط وانتشر الوباء، وحصد الطاعون الناس حصدًا، ووقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك. وعندما تأخرت رواتب الأتراك ، وكانوا القادة ، أغاروا على المكتبة ويقول المقريزي : « إن الكتب الجليلة المقدار ، المعدومة النظير في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليداً وغرابة ، قد اتخذ عبيدهم وإماؤهم من جلودها نعالاً وأحذية ثم أحرقوا أوراقها زعما منهم أنها تحوى كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم » وعندما دخل صلاح الدين القاهرة منتصرًا ، بعد هذه المأساة بقرن من الزمان ، وجد بقايا المكتبة في القصر الملكي تضم مائة ألف مجلد أو يزيد ، فوزع بعضها على رجاله ، وبيع البعض الآخر على يد خبير بالكتب يدعى ابن صورة . واستغرقت عملية البيع بضع سنين، وما بقي منها إلى عهد المماليك باعه الطلبة أثناء المجاعة التي اجتاحت الديار المصرية، نتيجة القحط والأوبئة بين عامي ١٣٤٨و ١٣٤٩ م، كل مجلد برغيف.

محنة التراث الإسلامي على يد المغول :

وعندما اقتحم هولاكو مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، أباح عاصمة بني العباس أربعين يومًا، وكان الدمار الذي أصاب الثقافة العربية والإسلامية مريعا. فألقيت مئات الألوف من المخطوطات في نهر دجلة، ولم يكن نصيب الكتب العربية من الدمار خلال زحف تيمورلنك بأقل منه على يد هولاكو.

وفي الغرب الإسلامي تعرض التراث الإسلامي لنفس المحنة، أو أشد قسوة، فحين سقطت غرناطة ١٤٩٢ وانتهت دولة المسلمين في الأندلس، أمر الكاردينال فرانسيسكو خمينيث دى ثيسنيروس، بإحراق الكتب العربية في ساحة باب الرملة في غرناطة، ولاسيما ما كان متصلاً بالأدب أو الفكر أو الدين، وبخاصة المصاحف المخطوطة، وبأن تباد كل الكتب العربية نهائياً من كل إسبانيا، ويفوق عدد المخطوطات التي أحرقت في غرناطة وحدها كل تصور. وأكثر الباحثين حذراً، وعطفاً على الكاردينال، يقدرونها بثمانين ألفًا.

وكان آخر هذه الكوارث المأساة المريعة التي تعرضت لها مكتبة جامعة الجزائر حين أضرم المتعصبون الفرنسيون النار فيها عام ١٩٦٢ م، خلال حرب الاستقلال البطولية التي خاضها شعب الجزائر، فأتت على جل ما فيها وضاعت أعداد هائلة من المخطوطات خلال الثورات الداخلية، والاضطرابات. والفتن، وكنتيجة حتمية للاحتضار

الثقافي فترت عناية الناس بالمخطوطات والكتب، ومع المد الاستعماري الأوربي تعرض ما بقي منها لنهب المستعمرين، عن طريق السرقة أو الغش أو الخداع والحيلة، ونقلت آلاف المخطوطات إلى دور الكتب الأوربية، والولايات المتحدة الأمريكية، وجامعاتها، وأصبح اقتناء المخطوطات العربية عملاً مرغوبًا، وميزة تحرص عليها هذه الجامعات، ومجالا للتسابق تتنافس فيه.

اختراع الطباعة:

ثم اخترعت الطباعة، فيسرت القراءة، وأرخصت الكتاب، وقلت الأخطاء، ومن أسف جاء اختراعها وسلطان الإسلام ينحسر عن الأندلس. وسحب الجهل تطبق على الأمة الإسلامية، فلم يدرك العالم العربي أهميتها. وقعد عن الإفادة منها، فتأخر إنشاؤها قرابة قرن ونصف قرن من الزمان، واحتاج إدخالها في تركيا، وكانت مركز الخلافة الإسلامية، إلى فتوى شرعية، فسمح بها العلماء بعد جهد كبير، على أن تقتصر على طبع الكتب غير الدينية ثم سمحوا بطبع هذه عندما تبين لهم فائدتها. ظهرت أول مطبعة عربية في مدينة «فاتو» بإيطاليا، أمر بإنشائها البابا يوليوس الثاني وبدأت العمل عام ١٥١٤ م في عهد الباب ليون العاشر وأول كتاب عربى طبع عليها في تلك السنة كتاب «الأورلوجيون المعروف بكتاب الساعية، وهو كتاب ديني يحتوى على صلاة الساعات الليلية والنهارية في الكنائس المسيحية البيزنطية،

ويقع في ١٨٨ صفحة، ثم سفر الزبور في عام ١٥١٦ م . وقام رجل يدعى بجانينو دى بريشيا بطبع القرآن للمرة الأولى في مدينة البندقية عام ١٥٣٠ م ولكن البابا أصدر أمره بإحراق جميع النسخ خشية تأثيرها في عقائد رعاياه من المسيحيين ".

وقد نشأ عن فشل الحروب الصليبية في تحطيم الدولة الإسلامية قيام فلسفة جديدة تدعو إلى غزو العالم الإسلامي عن طريق الفكر، بدراسة لغة المسلمين وعقائدهم، وتعليم المبشرين اللغة العربية، وكان على رأس الدعاة إلى هذه الفكرة الفيلسوف الإسباني الراهب رايموندو (أو لوليو)، فأدى ذلك إلى العناية بتدريس اللغة العربية في الجامعات الأوربية ،في باريس ووارسو وفيينا وأكسفورد، وإنشاء المطابع العربية، فأنشئت في روما، مقر الفاتيكان، مطبعة عربية كان من بين مطبوعاتها كتاب القانون لابن سينا، وحذت بقية عواصم أوربا الكبرى حذو روما .

نبذة عن أهم المعاجم

أ - المعاجم: إن اهتمام علماء المسلمين بشرح غريب القرآن والحديث كان النواة الأولى للمعاجم العربية، والمعاجم نوعان: معاجم ألفاظ، ومعاجم معاني، ومعاجم الألفاظ تساعدنا في معرفة معنى لفظة من الألفاظ، ومعاجم المعاني. (١)

---

(١) انظر المعجم العربي ، د. حسين نصار، ٥٠/١

١-**الصحاح:** (تاج اللغة وصحاح العربية) للشيخ أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، من أقدم ما صُنف في العربيـة من معاجم الألفاظ مرتب على الأبواب والفصول، فقد جعل حروف الهجاء أبوابًا، وجعل لكل حرف من هذه الأبواب فصولاً بعده حروف الهجاء، ففي باب النون ترى (خون.. ودفن.. وصبن.. وضأن وعثن)، فإذا أردنا الوقوف على معنى كلمة نردها إلى أصلها الثلاثي، ونجردها من زيادتها، وننظر في باب الكلمة وفصلها، ونستخرجها في موضعها، فنقف على ما نريد، فكلمة (الضائن) نراها في (ضأن) وهو أصلها، ونرى قوله فيها (هي خلاف الماعز ...)، وكلمة (عثان) نجدها في (عثن) هو أصلها الثلاثي ، ومعناها (الدخان وجمعها عواثن ودواخن) . طبع الكتاب في ستة أجزاء طبعة جيدة بتحقيق السيد أحمد عبدالغفور العطار بمصر سنة١٩٥٦م.

٢ - لسان العرب: للعلامة جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (٦٣٠ - ٧١١ هـ) أجمع معاجم الألفاظ، وأغناها بالشواهد، جيد الضبط، يعرض الروايات المتعارضة ويرجح أقواها، ولا يفوته أن يذكر ما اشتق من اللفظ من أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن وغيرها، فغدا هذا المعجم موسوعة لغوية وأدبية لغزارة مادته العلمية، واستقصائه واستيعابه لجل مفردات اللغة العربية، رتب ابن منظور معجمه على الأبواب والفصول، فجعل حروف الهجاء أبوابًا، أولها باب

الهمزة وآخرها باب الألف اللينة، وجعل لكل حرف من هذه الأبواب فصولاً بعدة حروف الهجاء. وفي الباب الواحد والفصل يراعي الترتيب الهجائي في الحرف الثاني من الكلمات الواردة في كل باب و فصوله ، ففي باب اللام ترد الفصول وما يليها مرتبة على حروف الهجاء فنرى في هذا الباب (ابل ، اتل ، اثل ، اجل ، ادل) من الكلمات الواردة في كل باب وفصوله ، ففي باب اللام ترد الفصول مرتبة على حروف الهجاء في أول كل كلمة من الباب ، فنرى في هذا الباب (ابل ، بتل ، تبل ، ثبل ، جأل ، حبل ، . . . وينتهي هذا الباب بفصل الواو ثم الياء في مادة (وأل) و (يسل) . . . وفي الباب الواحد والفصل الواحد نرى الحرف الثاني من الكلمة مرتبًا على حروف الهجاء أيضًا ، مثال هذا في باب اللام فصل الألف نرى هذه المواد . إبل، اتل، أثل، أجل، أدل، أرل، أزل، أسل، أصل ... أهل، أيل.

ويراعى ترتيب الحرف الثالث بعد مراعاة ترتيب الحرف الثاني في الكلمات الرباعية، ففي مادة بحل ترد المواد: بحدل، بحشل، بحظل، وهكذا، فلا يحتاج المرء من أجل استخراج معنى كلمة أكثر من أن يردها إلى أصلها الثلاثي ، وينظر في بابها وفصلها من المعجم : ليقف على كل ما يريد . طبع الكتاب في عشرين مجلداً سنة (١٣٠٠ هـ) بمصر وطبع بعدها في لبنان.

٣ ـ القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، معجم جامع، فوق غيره من المعاجم. ودون لسان العرب في ذكر الشواهد والنصوص، فقد اكتفى ببيان معاني الألفاظ وضبطها، فجمع معظم مفردات اللغة التي ذكرت في لسان العرب، وقد يزيد عليها في بعض المواطن، من هنا كانت مادته غزيرة ومكثفة، وقد اختصر كثيراً من الكلمات التي يكثر تكرارها في القاموس أثناء الشرح، واكتفى برموز بدلا منها، فرمز بـ (ج بدلا من كلمة جمع وجج بدلا من جمع الجمع ، و هـ بدلا من قرية . . .) مما أشار إليه في مقدمة كتابه .

وقد نهج في ترتيبه منهج لسان العرب طبع في أربعه أجزاء

٣٢٠

طبعته الخامسة سنة (١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م) المكتبة التجارية بالقاهرة.

وقد شرح العلامة المرتضى محمد بن محمد الحسيني الزبيدي القاموس المحيط وضمنه الشواهد، واستدرك عليه في معجمه المشهور (تاج العروس) الذي يعد بحق كنزًا من كنوز العربية . وقد طبع في عشرة أجزاء سنة ١٣٠٦ بمصر.

٤ ـ أساس البلاغة: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري صاحب تفسير الكشاف المشهور. ذكر الزمخشري في معجمه معاني الألفاظ على حقيقتها، واهتم بذكر المعاني المجازية بعد ذلك، فهو

يكتفي بذكر الأفصح من لغات العرب، فيبين المعنى الحقيقي، ثم يبين في فقرة تليها المعنى المجازي، وكثيرًا ما يستشهد بالشعر وبالنصوص الأدبية الرفيعة، مبينًا المراد من التعبير والتركيب، فلم يقف عند حدود اللفظة وبيان معناها، بل تعدى هذا إلى استعمالها في كلام العرب من باب الحقيقة والمجاز، وقد أراد بهذا بيان روعة بلاغة القرآن ، والكشف عن سر إعجازه ، ببيان ما وراء حقيقة الألفاظ من مجاز . وقد بين هذا في قوله " ومن خصائص هذا الكتاب تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح، بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح " وعلى هذا فإن الزمخشري لم يحاول استيعاب واستقصاء جميع ألفاظ اللغة كما حاول ابن منظور وغيره، بل اكتفى بذكر الألفاظ التي يدور استعمالها بين الحقيقة والمجاز، وقلما يعتنى بالألفاظ التي لا يعتريها المجاز. ولهذا ليس غريبًا ألا يجد الباحث بيان ما يريد من المفردات اللغوية، لأن (أساس البلاغة) أصلاً إنما وضع لبيان وتوضيح المعاني المجازية للألفاظ وتمييزها من المعاني الحقيقية، ولهذا لا بد من أن يستعين الباحث بمعجم آخر إلى جانب معجم الزمخشري.

رتب الزمخشري معجمه على حروف الهجاء وراعى في ترتيب

مادة الكلمة الحرف الأول والثاني والثالث بعد ردها إلى أصلها، بينما يدور ترتيب لسان العرب على الحرف الأخير، وكلاهما لا يخرج عن النظام الألفبائي.

طبع أساس البلاغة في مجلدين كبيرين في مطابع دار الكتب المصرية سنه (١٩٤١ م) بالقاهرة، ثم طبع مرارًا في مجلد واحد، وصور أخيرًا في بيروت.

٥ ـ المخصص: للشيخ أبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، من أقدم ما صنف في فقه اللغة وفي معاجم المعاني، فإنه يذكر لفظ المعنى الذي يدور في الخلد، وقد قسم معجمه إلى عدد من الكتب ككتاب خلق الإنسان، والغرائز، والنساء ... والسلاح والخيل، والإبل والغنم والوحوش.. والدهور والأهوية والرياح والماء والنخيل ... وقسم كل كتاب إلى أبواب تستوعب ما ينطوي تحت المعنى الأصلي من الفروع ، ففي كتاب خلق الانسان ذكر جميع أعضائه واسماء ما يصيبها من أمراض، وأسماء أصوات أعضائه ، كأصوات الأنياب وما يصيب الأسنان ، وفيه باب (الفصاحة) ذكر فيه خفة الكلام وسرعته وثقل اللسان واللحن وقله البيان ... طبع الكتاب في ثمانية عشر جزءًا سنة (١٣١٦ ـ ١٣٢١ هـ) بمصر ، وقد سهل الطابعون الرجوع إلى هذا الكتاب بوضع فهرس تفصيلي

جيد لكتبه وأبوابه ، مرتب على الحروف ، ووضعوا تحت كل حرف ما ذكره ابن سيده .

تلك هي أهم المعاجم التي قد يحتاج إليها الطالب والباحث، وهناك معاجم أخرى موجزة أو متوسطة كمختار الصحاح للفيومي والمعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية في مصر، وغيرها.

ب - أهم كتب فقه اللغة:

١ - من أقدم ما وصلنا في الدراسات اللغوية في هذا الباب كتاب (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن عمرو (ابن جني) طبع بتحقيق محمد على النجار سنة (١٩٥٢ - ١٩٥٦ م)

٢ - كتاب (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) لأحمد بن فارس القزويني. طبع بمصر سنة (١٣٢٨ هـ)

٣ - (فقه اللغة وسر العربية): لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، طبع بمصر المكتبة التجارية الكبرى.

٤ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) و هو من أجمع ما صنف في فقه اللغة، طبع في جزأين سنة (١٣٢٥ هـ) بالمطبعة السلفية في القاهرة . ثم طبع بعد ذلك مرارًا.

٥ ـ كتاب الاشتقاق والتعريب. للأديب اللغوي الشيخ عبد القادر بن محمد (المبارك) المغربي). طبع سنة (١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م) طبعة الثانية بالقاهرة.

٦ ـ المباحث اللغويـة في العراق: للدكتور مصطفى جواد. طبع لجنة البيان العربي سنة (١٩٥٥ م)

٧ ـ الاشتقاق: لعبد الله أمين طبع في مجلد كبير سنة (١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م) بالقاهرة.

٨ ـ فقه اللغة: للدكتور على عبد الواحد وافي من أجمع ما كتب حديثًا في فقه اللغة. طبع سنة (١٣٦٣ هـ ـ ١٩٤٤ م) مطبعة الاعتماد بمصر، وطبع سنة (١٩٥٠ م)

٩ ـ مناهج البحث في اللغة: للدكتور تمام حسان طبع سنة ١٩٥٥ مطبعة الرسالة بمصر.

١٠ ـ الأصوات اللغوية: للدكتور ابراهيم أنيس، وله كتـاب (دلالة الألفاظ) وكتاب (من أسرار العربية) وكتاب (اللهجات) طبع مصر . وهي أبحاث قيمة في بابها.

١١ ـ أصول النحو: للأستاذ سعيد الأفغاني وسيرد ذكره في مؤلفات النحو، وحقه أن يذكر هنا، لأنه عرض لأبحاث قيمـة من فقه اللغة، وبسطها بسطاً وافياً شافياً. كانت طبعته الثالثة سنة (١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م) بدمشق.

١٢- فقه اللغة وخصائص العربية: للأستاذ محمد المبارك، درس فيه دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية، وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، طبع الكتاب طبعته الثانية سنة ١٩٦٤ م في دار الفكر بلبنان

١٣- دراسات في فقه اللغة: للدكتور صبحي الصالح، من أجمع ما صنف في فقه اللغة حديثًا، طبع الكتاب طبعته الثانية سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م. المكتبة الأهلية بيروت.

١٤- دلالة الألفاظ العربية وتطورها: للدكتور مراد كامل محاضرات القاها في معهد الدراسات العربية العالية طبع سنة ١٩٦٣ بالقاهرة.

<u>جـ - قواعد العربية (النحو والصرف والإملاء)</u>:

لقد صنف في هذا العلم كتب كثيرة نكتفي بذكر بعضها

١ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. وضع الامام أبو عبد الله محمد جمال الدين ابن مالك الطائي الأندلسي في النحو ألفيته المشهورة، وشرحها كثيرون أشهرهم الامام العالم عبد الله بهاء الدين المشهور بابن عقيل المصري (٦٩٨ - ٧٦٩ هـ)، وقد طبع شرح ابن عقيل ومعه كتاب (منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل) لمحمد محيي الدين عبد الحميد. طبع مرارًا، وكانت الطبعة الرابعة عشرة سنة (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م) في جزأين كبيرين.

ولا بن هشام صاحب المغني المشهور شرحه لألفية ابن مالك المشهور بـ (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)

٢- التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل: للأستاذ محمد عبد العزيز النجار المفتش السابق بوزارة التربية والتعليم بمصر. طبع في مجلدين سنة (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م)

٣. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (٥١٣ - ٥٧٧ هـ). عرض فيه لمئة وإحدى وعشرين مسألة من مسائل الخلاف بين مدرستي الكوفة والبصرة، عرضًا علميًا دقيقًا، وبسط القول فيها بسطاً شافيًا، بأسلوب شائق وتبويب منظم. طبع الكتاب في ليدن سنة ١٩١٣ طبعة جيدة مفهرسة، ثم طبع في مصر مرارًا كانت الثالثة منها سنة ١٩٥٥.

٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للشيخ جمال الدين عبدالله ابن يوسف بن أحمد (ابن هشام الأنصاري) الحنبلي (٧٠٨ - ٧٦١ هـ) وقد جعل كتابه في قسمين تناول في القسم الأول (الأدوات في اللغة العربية) و بين العامل منها وغير العامل ، وحشد شواهدها من القرآن الكريم والأحاديث والأشعار والأمثال ، و بين معانيها وأحكامها " ، و تناول في القسم الثاني المفردات (حروفًا وأفعالاً وأسماء) والجملة وأقسامها وأحكامها ، وشبه الجملة وأحكامها ، والجهات التي يدخل

الاعتراض على المعرب من جهتها، وفي التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها، وفي كيفية الإعراب، وذكر أمورًا كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية، وأحكامًا يكثر دورها. طبع الكتاب في جزأين كبيرين سنة (١٣٧٢ هـ) المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة وعليه حاشية محمد الأمير الأزهري وقد نشر الكتاب بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني والدكتور مازن المبارك سنة ١٩٦٥ ـ دار الفكر بدمشق.

٥ ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب : لجمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف بن أحمد (ابن هشام) صاحب المغني المذكور في الفقرة السابقة ، وهو كتاب مشهور قال في مقدمته : (وبعد فهذا كتاب شرحت به مختصري المسمى بـ " شذور الذهب في معرفة كلام العرب " تممت به شواهده ، وجمعت به شوارده ، ومكنت من اقتناص أوابده رائده ، قصدت فيه إلى ايضاح العبارة ، لا إلى اخفاء الاشارة ، و عمدت فيه إلى لف المباني والأقسام ، لا إلى نشر القواعد والأحكام والتزمت فيه أنني كلما مررت ببيت من شواهد الأصل ذكرت اعرابه ، وكلما أتيت على لفظ مستغرب أردفته بما يزيل استغرابه ، وكلما أنهيت مسألة ختمتها بآية تتعلق بها من آي التنزيل ، وأتبعتها بما تحتاج إليه من اعراب و تفسير وتأويل ، وقصدي بذلك تدريب الطالب ، وتعريفه السلوك إلى أمثال هذه المطالب . ولذلك تراه يقول (قلت)

أي في المتن المختصر وهو (شذور الذهب) ثم يقول: (أقول) وهو الشرح عليه . طبع الشرح ومعه كتاب (منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب) لمحمد محي الدين عبد الحميد في مجلد وسط طبعته السادسة سنة (١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م) في مطبعة السعادة بمصر. وقد ضم هذا المجلد اعراب (٢٣٩) شاهداً من الشعر سوى الآيات وما جاء في شرح المعلق عليه.

د- البلاغة:

- بدأ التأليف ونشط في مختلف العلوم العربية. وسجلت الملاحظات والمسائل البلاغية في تلك المؤلفات، وهي إما لمؤلفيها وإما محكية ومنقولة عن غيرهم، فتعالوا ننظر في هذه المؤلفات لنرى كيف بدأت فيها أسس المسائل والفنون البلاغية ثم نمت وتطورت حتى صارت إلى ما هي عليه الآن.

١-من أقدم ما وصلنا من كتب البلاغة (كتاب الصناعتين) لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، أراد بالصناعتين الكتابة والشعر، عرض للموضوعات البلاغية والمحسنات البديعية وفنونها، وأكد أن غرضه في كتابه أن يقصد مقاصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، بعيدًا عن سبيل المتكلمين.

٢ - (دلائل الأعجاز) و (أسرار البلاغة): لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني إمام عصره في علوم العربية (- ٤٧١ هـ)، ففي

دلائل الإعجاز أرسى أركان علم المعاني ، وفي كتابه (أسرار البلاغة) أوضح (كثيرًا من أسرار الجمال في الصورة الأدبية ، وبين معالم التشبيه والاستعارة ، وكان له فضل كبير في تحديد معالم الفن الذي عرف فيما بعد بعلم البيان) . طبع دلائل الإعجاز سنة ١٣٣١ هـ بالقاهرة، وأسرار البلاغة سنة ١٩٥٤ بإستانبول.

٣ ـ مفتاح العلوم: لأبي يعقوب يوسف السكاكي (ـ ٦٢٦ هـ) احد أئمة العربية في عصره، جعل كتابه في ثلاثة اقسام ـ الأول منها للصرف، والثاني للنحو، والثالث للبلاغة بعلومها الثلاثة وما يلحق بها من قافية وعروض. وقد اتسم كتابه بالتقعيد والحدود، والتقسيم والتفريع، وقد تابعه العلماء من بعده. وصار كتابه (المفتاح) محورًا لتآليفهم وشروحهم. طبع كتابه بالقاهرة.

٤ ـ التلخيص: لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ـ٧٣٩ هـ) لخص فيه القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي. قال القزويني: (.. لما كان علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدراً وأدقها سرًا، . . . وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم . . . أعظم ما صنف في " علم البلاغة، من الكتب المشهورة نفعًا . . . وأكثرها للأصول جمعًا ولكن كان (مصنف السكاكي) غير مصون عن الحشو والتطويل ... والتقصير، قابلا للاختصار، مفتقرًا إلى الإيضاح والتجريد ... ألفت مختصرًا يتضمن ما فيه من القواعد، ويشمل ما يحتاج اليه من الأمثلة

والشواهد.. وسميته " تلخيص المفتاح ") وقد طبع (تلخيص المفتاح) سنة (١٩٠٤) بالقاهرة. والاستاذ محمد هاشم دويدري (شرح التخليص في علوم البلاغة) طبع دار الحكمة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

٥- الإيضاح: للإمام القزويني صاحب (تلخيص المفتاح) فقد وضعه شرحاً للتلخيص وزاد عليه مما جاء في كتابي (دلائل الاعجاز - وأسرار البلاغة) للجرجاني وما تيسر له من كلام غيره، وما أدى اليه اجتهاده وفكره. طبع الايضاح مراراً كما طبع مع بعض شروحه.

٦ - تهذيب الايضاح: للأستاذ عز الدين التنوخي (- ١٩٦٦ م) ، شرح فيه (إيضاح) القزويني وعلق عليه ، طبع الكتاب في ثلاثة أجزاء سنة (١٩٤٨ - ١٩٥٠) في مطبعة جامعة دمشق .

٧- (بغيــة الإيضاح لتلخيص المفتاح): للأستاذ عبد المتعال الصعيدي شرح فيه الايضاح للقزويني، وعلق عليه بما يحتاج إلى تعليق. طبع في أربعة أجزاء طبعته السادسة سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م بالقاهرة.

٨ - المنهاج الواضح في البلاغة: للأستاذ حامد عوني كتاب مدرسي مبسط عرض فيه لعلوم البلاغة الثلاثة عرضاً مدرسياً مناسباً • طبع الكتاب في جزأين سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م بالقاهرة.

٩ - ومن أجمع ما صنف في البلاغة وتطورها وكتبها وتاريخها كتاب (البلاغة: تطور وتاريخ) للأستاذ الدكتور شوقي ضيف. طبع دار المعارف ١٩٦٥ بالقاهرة. وكتاب (البلاغة العربية في دور نشأتها)

لسيد نوفل طبع بالقاهرة سنة ١٩٤٨. و (الموجز في تاريخ البلاغة) للأستاذ الدكتور مازن المبارك، أوجز فيه المراحل الأساسية في تاريخ البلاغة ودعا إلى دعم الدراسات البلاغية بالدراسات النفسية والجمالية. طبع الكتاب في دار الفكر سنة (١٩٦٨) في بيروت.

هـ - <u>الموسوعات الأدبية:</u> (أصول الأدب وأركانه كما قال ابن خلدون) صنف الأدباء السابقون كتبًا أدبية جامعة، قوية البيان، مشرقة العبارة، رشيقة الأسلوب، تكسب مطالعها والمكثر من قراءتها قوة التعبير، وحسن الأداء، وهي كثيرة نكتفي بذكر بعضها ، ليقف الطالب على جهود السابقين ، الذين أسهموا في صيانة اللغة والأدب عن الانحدار والاسفاف ، وفتحوا أبواب المدارس الأدبية لروادها .

١ - البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ) أحد كبار أئمة البيان في العربية، بل عده بعضهم زعيم البيان العربي ، عرض في كتابه لموضوع البيان ، وهو أنواع الكلام العربي : الخطابة والشعر والكتابة ، كما عرض للتبيين وهو كيفية التعبير عما في النفس بأسلوب مشرق جميل ، وبسط القول في هذا بسطًا وافيًا ، ووضح أهم ما يعتمد عليه الخطيب والكاتب والشاعر ، بأسلوب أدبي رفيع ، فأفاض في كلامه عن الفصاحة والبلاغة وحسن اللفظ ، وإعطاء كل حرف حقه ، وإخراج الحروف من مخارجها ، مما اضطره إلى الحديث عن عيوب النطق المختلفة ، وأشاد بفضل الفصاحة من

خلال الآيات القرآنية والأشعار الكثيرة التي ضمنها موضوعه ، كما تكلم عن اللحن في الأداء ، وذكر بعض أخبار اللاحنين من البلغاء . وكثيراً ما يشيد الجاحظ بالعرب وبفصاحتهم، ويتولى الرد على من ينتقصهم في بعض عاداتهم في الخطابة والكتابة ... وقد جمع كتابه مادة أدبية غزيرة، فلقي قبول الناس واستحسانهم، وثناء الأدباء عليه في عصره وبعد مماته. طبع البيان والتبيين عدة مرات في مصر، ومن أجود وأفضل طبعاته الطبعة التي حققها الأستاذ عبد السلام هارون، وهي في أربعة أجزاء محققة تحقيقاً علميًا، غنية بالفهارس الممتازة. وكانت هذه الطبعة سنة (١٩٤٨ - ١٩٥٠ م).

وللجاحظ كتاب الحيوان المشهور، طبع بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون في سبعة أجزاء (سنة ١٣٥٧ - ١٩٦٤ هـ) بالقاهرة.

٢- أدب الكاتب: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) وضع ابن قتيبة كتابه هذا لتوجيه الكتاب المحدثين، و اعانة الناشئين على اتقان التعبير وتقوية ملكتهم، بالاهتمام بالقرآن الكريم واللغة والشعر، وتحسين أسلوبهم في اختيار الألفاظ والبعد عن الخطأ واللحن الذي لا يليق بالكاتب، ومن هنا نبه إلى بعض الاخطاء اللغوية الشائعة ، وقد جمع كتابه بين جانب من فقه اللغة والنحو وشواهده والاملاء وما يلحق ذلك . طبع الكتاب في مجلد بمصر. وله كتاب " عيون الاخبار" أحد أركان الادب ودواوينه.

٣ - الكامل في اللغة والأدب : للعلامة أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (- ٢٨٥ هـ) ، جمع هذا الكتاب بين اللغة والأدب والنحو والتصريف ، فتناول قضايا لغوية و بعض المسائل النحوية ، كما ضم بين دفتيه كثيرًا من أشعار العرب ونثرهم ، ولم يخل الكتاب من أخبار الحرب والسياسة والأدب ، والحق أن عناية المبرد ببعض دقائق المسائل اللغوية والنحوية سلبت كتابه سلاسة الأدب ، وأسبلت هذا فإن على بعض موضوعاته ثوب البحث العلمي الجاف ، ومع هذا فإن قارئ الكامل يشعر بقوة أسلوب المبرد ، وحسن تعبيره ، ودقته في التحليل والتفسير ، وحسن الاختيار ، فالكتاب جامع مفيد قال المبرد في مقدمة كتابه: (هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبًا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة و اختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحًا شافيًا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيًا ، وبالله التوفيق ...) . وقد طبع الكتاب في جزأين سنة ١٩٥١ بمصر ومن أحسن طبعاته التي اعتنى بها زكي مبارك وأحمد محمد شاكر، وهي في ثلاثة أجزاء صدرت سنة ١٩٣٦ عن مطبعة البابي الحلبي، ثم صدر

جزء رابع يضم الفهارس التي وضعها محمد سيد الكيلاني سنة ١٩٥٦.

٤ ـ العقد الفريد: لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦ ـ ٣٢٧ هـ) كتاب أدبي جامع استفاد من السابقين كابن قتيبة والجاحظ والمبرد وابن المقفع وغيرهم ، وقد ذكر أنه تخير كتابه من متخير جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ، ولباب اللباب. قال : (فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الأدب ، ونوادر الأمثال ، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه ، فجعلته باباً على حدته ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب و نظيره في كل باب ، وقصدت من جملة الاخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرا ، وأظهرها رونقاً و الطفها معنى ، وأجزلها لفظا ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة ، أخذا بقول الله تبارك وتعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) . طبع الكتاب في سبعة أجزاء بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين و إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية سنة (١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م) بمصر وطبع في ثمانية أجزاء بتحقيق محمد سعيد العريان طبعته الثانية سنة (١٣٧٢ ـ ١٩٥٣) بالقاهرة .

٥ـ الأمالي: لابي علي اسماعيل بن القاسم البغدادي القالي الأندلسي (٢٨٨ ـ ٣٥٦ هـ) أحفظ أهل زمانه للغة ، وأرواهم للشعر وأعلمهم

بعلل النحو ، كتابه الأمالي من أمهات كتب الادب العربي ، قال القالي في مقدمته (... أودعته فنونا من الاخبار ، وضروبا من الأشعار وأنواعًا من الأمثال ، وغرائب من اللغات على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا انتحلته ، و....) . فجاء كتابه جامعاً لصنوف الأدب، والحكمة، ونوادر الأخبار، والآثار. طبع الكتاب في مجلدين، وطبع ذيله وكتاب (النوادر) للقالي وكتاب التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه للعالم أبي عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري جميعها في مجلد وكانت الطبعة الثالثة للمجلدات الثلاث سنة (١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م).

٦ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : للشيخ أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي القاهري (٧٥٦ - ٨٢١ هـ) من أكبر دواوين الأدب ، كتاب، جامع تناول اللغة العربية قبل الاسلام وحالها بعد الإسلام ، وازدهارها في أوج الدولة الإسلامية ، وانتشارها في أرجاء المعمورة ، وما بلغته من درجات الرفعة والارتقاء ، وما أصابها من وهن بضعف الدولة بعد ذلك ، وقد دفعه هذا إلى أن يتكلم في تطور الدولة الاسلامية وولاتها ودويلاتها في المشرق والمغرب ، وما بلغته من المجد والحضارة ، فذكر نوادر الاخبار ، ووصف الاقاليم والانهار ، فغدا كتابه موسوعة علمية أدبية جامعة فيها تاريخ وسير ، ولغة وأدب و فقه و تفسير وحديث ، وشرح للأمثال والحكم العربية ، وبسط لنظام الحكومات عامة ، والحكومة المصرية خاصة ، لأنه عاش في

ربوع مصر وترعرع فيها . وفيه من المتفرقات المجموعة مالا نجده في غيره، طبع قديماً سنة (١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م) بمطبعة دار الكتب المصرية، في أربعة عشر مجلدًا، وصور ثانية سنة (١٩٦٥ م) بإشراف الدار القومية للطباعة والنشر بمصر .

وإذا أمسكنا القلم عن متابعة عرض دواوين الأدب وموسوعاته عند هذا الحد، فلا بد من أن نذكر بدواوين لا تقل عما ذكرناه مثل (زهر الآداب وثمر الألباب) لإبراهيم بن علي الحصري القيرواني (- ٤٥٣ هـ) في جزأين ، و(نهاية الأرب في فنون العرب) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٢ هـ) في نحو ثلاثين جزءاً طبع منها (١٨) جزءًا ، و(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) لأبي العباس أحمد بن محمد المقري (- ١٠٤١ هـ) في ثماني مجلدات .

- المختارات الشعرية:

١ - ديوان الحماسة : لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (١٩٠- ٢٣١ هـ) من أشهر مصادر الشعر العربي ، وأهم مجموعة من المختارات تمثل الشعر الجاهلي والاسلامي ، وهي غذاء أدبي لكل باحث أو دارس ، في حماسة أبي تمام عشرة أبواب (الحماسة ، الميراثي ، الأدب ، التشبيب ، الهجاء ، والأضياف، والمديح ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومذمة النساء) ، واشتهر كتابه بالباب الأول منه ، وقد لقى ديوان الحماسة اهتمام العلماء فشرحوه ولخصوه

، أشهر شروحه شرح علي بن أحمد المرزوقي طبع بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون بمصر سنة (١٣٧١ هـ) وشرح الإمام التبريزي . وقد اختصره الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي وطبع المختصر في جزأين بمصر سنة (١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م)

الكتاب لسيبويه "ت ١٠٨ هـ"

تحدث سيبويه في الكتاب عن بعض خصائص التراكيب وأوجه الدقة في استعمال الألفاظ مثل: التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف، وعن معاني بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وأدوات الشرط وذا ما تناوله البلاغيون فيها بعد في علم المعاني. يقول مثلاً عن سر بلاغة التقديم عند جواز تقديم المفعول على الفاعل: "كأنهم إنا يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"، ويتحدث عن همزة الاستفهام فيذكر أن قولك: أزيدا لقيت أم عمرا؟ تقديم الاسم فيه أحسن وأفضل، ولو قلت ألفيت زيدا أم عمرا؟
لكان جائزا حسنًا وما أجازه سيبويه وعده حسنا رفضه عبد القاهر والبلاغيون بعده حيث أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة إذا كانت للتصور فلا يجوز عندهم في المثال المذكور إلا "أزيدا لقيت أم عمرا؟ وهو ما جعله سيبويه أحسن وأفضل. وقد ذكر صاحب دلالات التراكيب وجها حسنا في التوفيق بين الرأيين فارجع إليه ويشير إلى المجاز العقلي عند حديثه عن بيت الخنساء:

ترتع ما غفلت حتّى إذا ادكرت * فإنما هي إقبال وإدبار

فيقول: "جعلتها الإقبال والإدبار مجازا على سعة الكلام"، كما يتحدث عن التشبيه ويورد أمثلة له نحو قولك: مررت برجل مثل الأسد، إذا كنت، إلى غير ذلك من الإشارات البلاغية التي تجدها متناثرة هنا وهنالك والتي تحتاج من دارسي البلاغة إلى تتبعها واستخلاصها.

معاني القرآن للفراء "ت ٢٠٧هـ

ويتحدث الفراء في كتابه "معاني القرآن" عن مسائل بلاغية مختلفة كالتقديم والإيجاز والإطناب والمعاني التي تفيدها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام، والتشبيه والاستعارة والكناية، وهي إشارات موجزة يدركها المتأمل في كتابه معاني القرآن. نراه مثلاً يشير إلى الكناية في الآية الكريمة: "وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً» [البقرة: ٢٣٥] فيقول: "السر في هذا الموضع: النكاح" ثم يرويه عن ابن عباس منعها وينشد لامرئ القيس:

ألا زعمت بسياسة اليوم أنني ** كبرت والا يشهد السر أمثالي

ويتحدث عن الاستعارة في قوله تعالى: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا بإمام مُّبِينٍ} [الحجر: ٧٩] فيقول: "بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم فجعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع.

ويتحدث عن إفادة الاستفهام لغير طلب الفهم في الآية الكريمة: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيكم) [البقرة: ٢٨]، فيقول: "وقوله"

كيف تكفرون... "على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض أي: ويحكم كيف تكفرون" وهذه إشارة دقيقة لو تنبه لها البلاغيون المتأخرون ما تعبوا وأتعبوا، فقد قالوا: إن إفادة الاستفهام لمعانيه البلاغية عن طريق المجاز ثم راحوا يلتمسون العلاقات بين طلب الفهم وبين المعاني البلاغية كالإنكار والتعجب والتهكم والوعيد والتقرير، وقد تعبوا كثيرًا في الوصول إلى علاقات مناسبة لا تسمن ولا تغني، ولا تفيد الدارس شيئا، وكانوا في غنى عن هذا التعب لو أنهم تنبهوا لإشارة الفراء إلى أن تلك المعاني دخلت الاستفهام وشابته فأفادها بالإضافة إلى إفادة طلب الفهم، وصار بإفادته إياها استفهاما غير محض.

مجاز القرآن لأبي عبيدة(٢٠٨هـ)

ألف أبو عبيدة كتابه "مجاز القرآن" بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأله سائل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى: "طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ "[الصافات: ٦٥]، فقال: "إنما يقع الوعد والإيعاد بها قد عرف مثله وهذا لم يعرف، فأجاب أبو عبيدة: إنها كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي * ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به" والمجاز عند أبي عبيدة لا يراد به المجاز الاصطلاحي المقابل للحقيقة، وإنما يراد به المعنى اللغوي لكلمة "مجاز" فهي مصدر ميمي أو اسم مكان من جاز يقال: جاز الطريق وجاز مجازا إذا عبر. فالمراد إذا بمجاز القرآن: التفسير وبيان الطرق التي يسلكها القرآن في التعبير عن المعاني. وقد أشار أبو عبيدة إلى هذا المراد حيث يقول في الآية الكريمة: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } [القيامة : ١٧]: مجازه تأليف بعضه إلى بعض" ثم قال: "فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" [القيامة : ١٨] مجازه، فإذا ألفنا منه شيئا فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك"، وفي أثناء تفسيره للآيات الكريمة تحدث عما فيها من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار، كما أشار إلى الصورة العامة للالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية إذ يقول: "ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى: (حتى إذا كنت في الفلك وجرين بهم) [يونس: ٢٢] أي: بكم"

الأصمعي "ت ٢١١ هـ"

لم يترك الأصمعي كتابا في صيغ التعبير القرآني كالفراء وأبي عبيدة، ولكن من جاءوا بعده كابن المعتز وابن رشيق وأبي هلال وقدامة نقلوا آراءه وإشاراته البلاغية، فقد تحدث عن الجناس ويقال إنه ألف فيه

كتابا وتحدث عن المطابقة وعن صورة أخرى للالتفات غير الصورة التي ذكرها أبو عبيدة. كما تحدث عن الإيغال وعن المبالغة.

يقول ابن المعتز: "التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها"

ويقول ابن رشيق: "ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع"، ثم قال: أحسن بيت قيل لزهير في ذلك:

ليت بعثر يصطاد الرجال إذا* ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

وتحدث الأصمعي عن الالتفات وهو أول من وضع له هذه التسمية وقد أضاف له صورة أخرى غير التي ذكرها أبو عبيدة وهي أن يفرغ المتكلم من المعنى ونظن أنه سيتجاوزه إلى غيره؛ فإذا به يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره. يقول أبو هلال: "سأل الأصمعي بعض من كان يتحدث إليهم أتعرف التفاتات جرير؟

فقال له: فما هي؟ قال:

- أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود* بشامة شقى البشام

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له.

وقوله:

طرب الحمام بذي الأراك فشاقني *لا زلت في غلل وأيك ناضر
فالتفت إلى الحمام فدعا له..."، كما أشار الأصمعي إلى الإيغال وعرفه بأنه: أن ينقضي كلام الشاعر قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. كقول ذي الرمة:

قف العيس في أطلال مية فاسأل*رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه بالرداء ثم أفاد بالمسلسل شيئًا جديدًا

وكقول الأعشى:

كناطح صخرة يوما ليفلقها* فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فتم كلامه ب يضرها فلما احتاج إلى القافية قال: وأوهى قرنه الوعل، فزاد معنى

صحيفة بشر بن المعتمر "ت ٢١٠ هـ"

وصحيفة بشر من الأصول البلاغية المهمة التي أفاد منها الدارسون كثيرا إذا ألهمتهم كثيرا من الأفكار والقضايا، وقد رواها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وإليك خلاصة ما تضمنته هذه الصحيفة من أفكار.

١-يوصي بشر في أول صحيفته الأديب أن يقبل على عمله في وقت نشاطه وعندما يكون مستعدا لهذا العمل فارغ البال مما سواه وألا يخوض في أدبه عندما يكون مجهدا متعبا.

٢-ينبغي للأديب سواء أكان خطيبا أم كاتبا أم شاعرا أن يبتعد عن التعقيد وعن الألفاظ الغريبة الوعرة وأن يتخير الألفاظ الملائمة للمعنى الذي ينشده والمعاني وأحوال المستمعين الذين يوجه إليهم الحديث.

٣- المعنى الشريف الكريم يلائمه اللفظ الشريف فينبغي للأديب أن يصون معانيه وألفاظه عما يفسدهما ويهجنهما.

٤- ينبغي للأديب أن يلائم ويوازن ويراعي المقامات والأحوال؛ مقامات الكلام وأقدار المعاني وأحوال المستمعين، فإن كان من المتكلمين ويخاطب غيرهم تجنب ألفاظ المتكلمين، وإن خاطب المتكلمين كان الأولى والأجدر استعمال ألفاظهم ومصطلحاتهم إذ هم على فهمها أقدر وإليها أميل وبها أشغف، فعلى الأديب إذا أن يلائم بين الألفاظ ثم يضع بشر الأديب في منزلة من منازل ثلاث:

٥- أولاها: منزلة البليغ التام الذي يقدر على أن يصوغ معانيه في ألفاظ رشيق عذبة، وسهلة فخمة، وأن تكون معانيه ظاهرة واضحة، وقريبة معروفة، وأن يمكنه إفهام العامة معاني الخاصة بأن يكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا نجفو عن الأكفاء فالمعنى لا يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، ولا يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنها مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.
ثانيها: منزلة من لا تسعفهم طبائعهم بالألفاظ الملائمة والقوافي

الجيدة المتمكنة، بل يجدون في ذلك عسرا وصعوبة، ومثل هؤلاء يحسن أن يتأنوا، لئلا تسمح لهم بالكلام الجيد لأول وهلة؛ فعليهم أن يتركوا العمل إذا تأبى عليهم سواد الليل وبياض النهار، ثم يعاودوه عند نشاطهم واستعدادهم واكتمال تهيؤهم، فإن كان لهم في الأدب طبيعة ومنزع فسيواتيهم عندئذ، وإن لم يكن غزيرا.

٦- ثالثتها: منزلة من شحت طبائعهم، ونضبت ينابيع القول في نفوسهم، فهم مهما تأنوا وتهيأوا ونشطوا وخلصوا أنفسهم من أي شاغل آخر، لا يقعون من الأدب إلا على المستكره المرذول أو لعلهم لا يقعون على شيء منه أبدا، وهؤلاء حري بهم أن يهجروا صناعة الأدب إلى صناعة أخرى تشاكلهم وتناسبهم.

تلك خلاصة ما عرضه بشر في صحيفته من آراء وأفكار ونصائح وما من ريب في أن النقاد والبلاغيين قد أفادوا كثيرا مما جاء في هذه الصحيفة... [1]

---

[1] ارجع إلى نص الصحيفة في البيان والتبيين ١/ ١٣٥.

الجاحظ "ت ٢٥٥هـ"(١)

يعد الجاحظ من الأعلام الذين أسهموا بنصيب وافر في إرساء دعائم الفنون البلاغية، فلقد أشار في كتاباته إلى كثير من الأسس البلاغية التي أثرت البحث البلاغي، وألهمت الدارسين الكثير من الآراء والأفكار.

والناظر في كتابات الجاحظ في "البيان والتبيين" أو "الحيوان" أو "البخلاء" أو في "رسائله" يقف على أسلوبه المتميز بكثرة الاستطراد والخروج من فكرة إلى أخرى ثم العود بعد زمن طويل إلى الفكرة الأولى، ولعله يهدف بهذا إلى دفع الملل عن السامع أو القارئ، كما أن الأسس البلاغية التي يعرض لها تراها متناثرة في كتاباته، والفكرة الواحدة تراه يعرضها في عدة مواضع، مما يتطلب من الدارس أن يبذل الكثير من الجهد في تتبعه واستقصاء كتاباته حتى يقف على هذه الأسس ويلم بتلك الأفكار.

ما أهم الأسس البلاغية التي تحدث عنها الجاحظ؟

عرض الجاحظ لملائمة اللفظ للمعنى، وملاءمة الكلام للمقام ولأحوال المستمعين، وقد مرت بنا صحيفة بشر التي ذكرها، كما عرض الجاحظ

---

(١) البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨تحقيق: المحامي فوزي عطوي، عدد الأجزاء: ١

للنظم وأشار إلى كتاب له في "نظم القرآن" ولكنه لم يصل إلينا، وقد رجع الجاحظ إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد [١]

وبتأمل هذه العبارة لا نجد تقديا للفظ على المعنى وإنها المقدم هوا النظم: أي "إقامة " أما اللفظ المجرة اللفظ المسبوك، المقام في وزن، المصاغ في شعر، الذي صور به معنى الوزن... جودة السبك... الشعر صياغة وضرب من التصوير الذي لم يوضع في نظم فلا مزية له.

ويخطئ كثير من الدارسين عندما يقرون أن الجاحظ قدم اللفظ على المعنى مستندين إلى عبارته: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنها الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي

صحة الطبع وجودة السبك وإنا الشعر صياغة وضرب من التصوير [٢]

ويقوي هذا الزعم قول الجاحظ في موضع آخر: "ثم اعلم - حفظك الله – أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة [٣]

فهو هنا يقدم المعاني لأنها مبسوطة ممتدة ويؤخر الألفاظ؛ لأنها معدودة محددة، ولكن ما المعاني المقدمة هنا؟ إنها المعاني المركبة،

---

(١) انظر الحيوان ٩٤/٤.
(٢) الحيوان ٣/ ١٣١
(٣) البيان والتبيين ٧٦/١

إنها الصياغة والتصوير والسبك، وليس المراد بها المعاني العامة، واللفظ المؤخر هنا هو اللفظ المجرد، لأنه هو المحدود المعدود أما الألفاظ المنظومة المركبة فهي ممتدة لا نهاية لها. المزية إذا مرجعها عند الجاحظ إلى النظم، وسوف نرى نمو نظرية النظم هذه عند القاضي عبد الجبار ثم ازدياد نموها عند الإمام عبد القاهر الذي فصلها وحلل شواهدها.

ومما عرض له الجاحظ أيضا من أسس وقضايا بلاغية: الإيجاز والإطناب والمساواة، فتحدث عن التكرار في الوعظ والقصص القرآني، وبين أن لكل من الإيجاز والإطناب مقاما يقتضيه وأن المعتد به في الإيجاز ليس مجرد قصر الألفاظ وقلة كمياتها، وإنما هو مساواتها الدقيقة للمعاني دون زيادة فقد يمتد الكلام صفحات ويسمى موجزا. عمر له قول زهير: وتحدث عن التعقيد المخل بالفصاحة وعن تنافر الحروف وتنافر الكليات وأطال الوقوف أمام بعض الشعر الذي اشتد فيه التنافر بين ألفاظه. وتكلم عن السجع وعقد له بابا سماه "باب من الأسجاع في الكلام"، وعن الازدواج والاقتباس من القرآن الكريم ونوه بالتقسيم وجودته وعلل به استحسان وإن الحـــــــ مقطع ـلات يمــن أو يفـــار أو جـلاء واستحسانه قول عبدة بن الطبيب:

والمـرء سـاع لـشيء ليس يدركه*والعيش شح وإشفاق وتأميـل

فقد ردد عمر البيتين عند سماعها متعجبا من حسن ما قسم وفصل وتكلم عن حسن الابتداء وحسن التخاطب والانتهاء فقال: "وحدثني صالح بن خاقان قال: قال شبيب بن شبيبة: الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه"

وتحدث عن الإرصاد وهو ما يعرف بالتسهيم أو التوشيح وإن لم يسمه بهذا الاسم، بل جعله من صفات البلاغة التي تكسب الكلام حسنا وجمالاً حيث يقول: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلا سمعك أسبق من معناه إلى قلبك وتكلم عن الأسلوب الحكيم وسماه باسم اللغز في الجواب له عدة شواهد.

كما تحدث عن المذهب الكلامي ويذكر ابن المعتز أن الجاحظ هو الذي سماه بهذا الاسم، والمراد به عند الجاحظ وكذلك عند ابن المعتز: طريقة المتكلمين العقلية في إقامة الحجج وإبراز الأدلة والجدل ...

يقول الجاحظ "لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى... وللعقل في خلال ذلك مجال، وللرأي تقلب، وتنشأ للخواطر أسباب، ويتهيأ لصواب الرأي أبواب"

ويعد الجاحظ أول من أشار إلى مسألة السرقات الشعرية التي شغل بها كثير من النقاد والبلاغيين.. على أن المسألة في رأيي لا تعدو أن تكون تأثرًا وتأثيرًا

يقول الجاحظ: "لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلا وكل من جاء بعده من الشعراء معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف فيه ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال إنه: خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول وأشار إلى الاحتراس في بيت طرفة بن العبد:

فسقى ديارك -غير مفسدها- صوب الغمام وديمة تهمي**

وسماه: إصابة المقدار: حيث طلب الغيث على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار وتحدث عن الاستعارة في قول الشاعر:

يا دار قد غيرها بلاها * كأنما بقلم محاها**

أخربها عمران من بناها* وكر ممساها على مغناها**

وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها**

إذ يقول: "ممساها يعني مساءها" ومغناها: موضعها الذي أقيم فيه، والمغاني المنازل التي كان بها أهلوها، وطفقت: ظلت تبكي، على عراصها عيناها، وعيناها ههنا للسحاب وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه

ونراه في أكثر من موضع يتحدث عن التشبيه وعن الكناية والتعريض وعن المجاز بمعناه الاصطلاحي المقابل للحقيقة، ولكنه لم يحدد أنواعه فقد أطلقه على الاستعارة بأنواعها وعلى المجاز المرسل:

فمن حديثه عن الكناية قوله: "إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل، وإذا قيل للعامل مستقص فذلك كناية عن الجور"، وقوله: "رب كناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية قائلها على النهاية "ومن حديثه عن التشبيه مقارنته بين قول النبي : "النّاس كلهم سواء كأسنان المشط"، وقول كثير عزة:

ســواء كأسنان الحمار فلا ترى*لذي شيبة منهم على ناشئ فضلاً

إذ يقول: "وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي وحقيقته عرفت فضل ما بين الكلاميين"، وقد ساق كثيرا من الآيات والأشعار معلقا على ما فيها من تشبيهات ذاكرًا التشبيه بنفس معناه الاصطلاحي.

ومن حديثه عن المجاز تعليقه على الآية الكريمة: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرا)

[النساء: ١٠]؛ حيث جعلها من باب المجاز، ثم قال: "وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل... قد قال الله عز وجل في تمام الآية: «إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وهذا مجاز آخر... ونار تأتي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة نحو قول ابن ميادة .

ونـاراه نـار نـار كـل مـدفع وأخـري ** يصيب المجرمين سعيرها

ولما رأى الجاحظ إكثار الشعراء المعاصرين له من ألوان البديع المختلفة لم يعتد بها في اللغات الأخرى منه وجعله مقصورا على العرب، وذلك حيث يقول: "والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع والعنابي يذهب شعره في البديع.

فلا عجب إذا قلنا بعد ذلك كله، إن ما ذكره الجاحظ في كتبه من أسس بلاغية، قد أثرى البلاغة العربية، وقد انتفع بهذه الأسس كثير من الدارسين بعده .

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة "ت ٢٧٦هـ"

يعد ابن قتيبة من أعلام أهل السنة كما أن الجاحظ من أعلام المعتزلة، يقول ابن تيمية: "هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، كان خطيب أهل السنة كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة"، وقد ألف ابن قتيبة كتابه: "تأويل مشكل القرآن" للرد على الملاحدة الذين يطعنون في

أساليب القرآن الكريم ويشككون في نظمه وإعرابه، وقد عرض في كتابه للكثير من آي الذكر الحكيم مستشهدا لها بنصوص الشعر القديم ليبطل دعوى الطاعنين، ويذهب ريب المشككين.

كما أن له كتاب "الشعر والشعراء" و "تأويل مختلف الحديث"، وفي هذه الكتب نثر ابن قتيبة ملاحظاته البلاغية، فتحدث عن المجاز بمعناه الواسع وتحدث عن الحذف والتقديم والتأخير والتكرار في القصص القرآني، وعن مخالفة ظاهر اللفظ معناه وهو ما عرف فيها بعد باسم المشاكلة كقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها» [الشورى: ٤٠]، كما تحدث عن الكتابة والمبالغة وعن المقلوب كتسميتهم اللديغ سليما والفلاة مفازة وتحدث عن الاستعارة وعن الاستفهام وإفادته لمعانيه البلاغية وعن الأمر وإفادته لغير طلب الفعل.

إلى غير ذلك من الملاحظات التي أثارها وتحدث عنها... انظر إلى قوله:" وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع والجمع خطاب الواحد، والواحد والجمع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص إلى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في باب المجاز" ونلاحظ أنه

يستعمل المجاز بمعناه الواسع على الرغم من أن الجاحظ قد استعمله في معناه الاصطلاحي المقابل للحقيقة

وإذا كان ابن قتيبة قد استعمل المجاز بمعناه الواسع، فإنا نراه يستعمل الكناية في معناها الاصطلاحي الذي حدد فيها بعد، وذلك حيث يقول في قول العرب: فلان طويل النجاد: "والنجاد حمائل السيف، وإنما يريدون أنه طويل القامة، فيدلون بطول نجاده على طوله، ويقولون: فلان عظيم الرماد، ولا رماد في بيته ولا على بابه، وإنما يريدون أنه كثير الضيافة"، ونجد ابن قتيبة في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" يسوي بين اللفظ والمعنى في البلاغة، ويقسم الكلام على هذا الأساس إلى أربعة أقسام: ما حسن لفظه ومعناه معا، وما حسن معناه دون لفظه، وما حسن لفظه دون معناه، وما ساء وقبح في لفظه ومعناه معا".

وكأنه قد نظر في قول الجاحظ "المعاني مطروحة في الطريق" واعتقد أنه يقدم اللفظ على المعنى، فأراد أن يجعل للمعنى مزية في البلاغة كاللفظ ... وقد أوضحنا أن الجاحظ لم يقدم اللفظ ولا المعنى؛ وإنا رجع البلاغة إلى النظم وجودة السبك فارجع إلى ما قلناه هناك.

كتاب الكامل للمبرد "ت ٢٨٥ هـ"

ونلتقي بالمبرد صاحب المؤلفات والمصنفات التي أربت على الأربعين مصنفا، وأشهرها كتاب "الكامل" في اللغة والأدب الذي يقول عنه: "هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة.

وقد اشتهر المبرد بالنحو فعرفه أكثر القدماء بمحمد بن يزيد النحوي، وكان فصيحا بليغا مليح الاختيار ثقة فيها يرويه، وقد ضمن كتابه "الكامل" كثيرا من أنواع البديع وألوان البلاغة، من أهمها حديثه عن التشبيه حيث أفرد له بابا وذكر أن العرب تشبه على أربعة أضرب تشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقلوب وتشبيه بعيد وقد ساق كثيرا من الشواهد منها قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا*لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

ذاكرًا أنه أحسن تشبيه أجمعت الرواة عليه حيث شبه شيئا واحدا في حالتين بشيئين مختلفين.

ثم يقول: "فإن اعترض معترض فقال، فهلا فصل التشبيهين فقال: كأنه رطبا العناب وكأنه يابسًا الحشف البالي"، ويجيب عن هذا الاعتراض بأن العربي الفصيح الفطن يرمي بالقول مفهوما ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا... ونجد المبرد يطلق التشبيه على التمثيل، فلا

فرق عنده بين التشبيه والتمثيل؛ إذ يذكر أن من تمثيل امرئ القيس الحسن العجيب قوله:

كأن عيون الوحش حول خبائنا** وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

ومن التشبيه المصيب في رأي المبرد قول ذي الرمة:

بيضاء في دعج صفراء في نعج** كأنها فضة قد مسها ذهب

ومن أعجب التشبيهات عنده قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي *** وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

كما تحدث المبرد عن الاستعارة حيث يقول معلقا على قول الراعي

يا نعمها ليله حتى تخونها داع دعا في فروع الصبح شحاج

و"شحاج إنما هو استعارة في شدة الصوت، وأصله للبغل والعرب تستعير من بعض لبعض، فقد جعل "شحاج" استعارة على أنه صوت للبغل استعير للغراب، والحقيقة أنه صوت للبغل والجمل والحمار والغراب، قال ابن سيده: "والشحاج والتشحيج صوت البغل والحمار والغراب إذا أسن"

وتحدث عن الكناية حيث قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام: حقيقة وكناية ومثل، ثم جعل الكناية على ثلاثة أوجه، فهي إما للتعمية والتغطية، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، وإما للتعظيم والتفخيم، ومن أمثلتها عنده قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري:

تــنـــام عـــن كبـــر شـأنها فــإذا*** قامـت رويـــدا تكاد تنـصرف
تـمشي الهوينا إذا مـشـت فضلاً*** كأنـهـا عـــــود بـانـــة قـصف
وتحدث عن الالتفات إذ يقول: "والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد إلى المتكلم، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله عز وجل: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة» [يونس: ٢٢] كانت المخاطبة للأمة ثم انصرفت إلى النبي إخبارا عنهم، وقال عنترة:
شـطت مـزار العاشقين فأصبحت **عسـرا علـي طـلابـك ابنة مخـرم
ويروى البيت برواية أخرى وهي:
حلت بـأرض الزائرين فأصبحت ***عسـرا علـي طـلابـك ابنـة مخـرم
فكان يحدث عنها ثم خاطبها:
ومثل ذلك قول جرير:
وتــرى العواذل تـبتــدرن ملامتـي** فـإذا أردن سـوى هـواك عـصينا
ونلاحظ أنه تحدث عن صورة واحدة من صورتي الالتفات وهي الانتقال من إحدى طرق التكلم إلى الأخرى، وتلك هي الصورة التي ذكرها أبو عبيدة، أما الصورة الأخرى التي ذكرها الأصمعي؛ فلم يشر إليها.
والمبرد هو أول من أشار إلى أضرب الخبر، فقد قال له الفيلسوف الكندي ذات يوم: "إني أجد في كلام العرب حشوا، يقولون عبد الله

قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد؛ فأجابه المبرد: بل المعاني مختلفة: "فعبد الله قائم" إخبار عن قيامه، و"إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، و"إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر، وقد ألهمت هذه الإجابة البلاغيين الحديث عن أضر الخبر، وسموا الخبر الأول ابتدائيا ويخاطب به خالي الذهن والثاني طلبيا ويخاطب به المتردد السائل والثالث إنكاريا ويخاطب به المنكر.

كما تحدث عن التعقيد اللفظي في بيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا* أبو أمه حي أبوه يقاربه**

وعن التعقيد المعنوي في قول العباس بن الأحنف.

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا* وتسكب عيناي الدموع لتجمدا.

وتحدث عن الإفراط في الصفة أو الغلو إذ يقول معلقا على بيت الأعشى:

فلو أن ما أبقين مني معلق* بعود ثمام ما تأوّد عودها**

"إن هذا تجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه"[1]. كما تحدث عن اللف والنشر وسماه هذه التسمية إذ يذكر قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: "ما أحسن الحسنات في آثار السيئات وأقبح السيئات في آثار الحسنات وأقبح من ذا وأحسن من ذاك السيئات في آثار السيئات، والحسنات في آثار الحسنات، ثم يقول معلقا عليه: "والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم

(١) انظر رغبة الآمل ١/ ٣٩٣. وتأوّد العود: انثنى واعوج. والثمام: نبت صغير ضعيف، قصير لا يطول، وهو معروف بالبادية تأكله الأنعام إذا جهدت في الجدب.. لسان العرب مادة: ثمم.

ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره [1] وتحدث عن التجريد إذ يقول في بيت أعشى باهلة:

أخو رغائب يعطيها ويسألها يأبى الظلامة منه النوفل الزفر [2]

وإنما يريده بعينه كقولك: لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد.

ثم يسوق بيت الأعشى.

يا خير من يركب المطي ولا *** يشرب كأسا بكف من بخلاً

ويقول: "قال إنها تشرب بكفك ولست ببخيل [3]

إلى غير ذلك من المسائل البلاغية التي تجدها مبعثرة في كتاب "الكامل" وغيره من كتب المبرد.

كتاب البديع لعبدالله بن المعتز "ت ٢٩٦ هـ

هو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ولي الخلافة يوما وليلة ثم مات مقتولاً، وقيل مخنوقا سنة ٢٩٦ هـ، وكان شاعرا مطبوعا، حسن الإبداع، سهل اللفظ جيد القريحة بديع التشبيه، انظر إلى تشبيهاته التي أعجب بها عبد القاهر وعدها من التشبيهات الحسنة البديعة:

كأن عيون النرجس الغض حولنا **مداهن در حشوهن عقيق

سعيا لروضات لنا من كل نور حاليه

---

(١) الكامل ١٢٧/١.

(٢) النوافل من قولهم: فلان ذو فضل ونوافل والزفر: يطلق على السيد والرجل القوي الذي يزدفر بالأموال في الحمالات مطيقا لها وقوله: "منه" مؤكدة لذلك... انظر لسان العرب مادة: زفر.

(٣) الكامل ١/ ٥٧

عيون آذريونـــــها   للـــشمس فيها كاليـــــــه

مــداهن من ذهـــب *****   فيـــها بقايـــا غاليـــه

وكأن الـبـرق مـصحف قـــار*** فانطباقا مرة وانفتاحــــا

وأرى الثريا في الـسماء كأنـهـا***قدم تبـدت مــن ثيـاب حـداد

تأمل مدى قدرة الشاعر على التصوير والإبداع، وغير خاف عليك الترف والنعيم وحياة القصور التي كان يحياها الشاعر والتي تبدو من خلال الأبيات.

كما كان ابن المعتز محبا للعلماء والأدباء مخالطا لهم معدودا في جملتهم، وله بضعة عشر مؤلفا في فنون شتى، وصل إلينا منها: ديوانه وطبقات الشعراء وكتاب البديع

ويعد "كتاب البديع" " أول كتاب يقوم بدراسة مسائل البلاغة وفنون البديع دراسة منهجية دقيقة منظمة، فقد كانت تلك الفنون مبعثرة في كتب السابقين، فقام ابن المعتز بجمعها ذاكرا أنه لم يسبقه إلى هذا الجمع أحد ثم قسمها إلى قسمين:

(١) فنون البديع وحصرها في خمسة: الاستعارة والجناس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامي.

(٢) محاسن الكلام، وقد ذكر منها ثلاثة عشر فنا ثم قال: إنها أكثر من أن يحاط بها، ولعل سبب حصره فنون البديع في تلك الفنون الخمسة يرجع إلى شهرتها في عصره وإلى أنها كانت موضع الأخذ

والرد بين البلاغيين والمتفلسفة. ومن ينزعون نحو التجديد المسرف.

وكانت غاية ابن المعتز وغرضه من تأليف كتابه أن يثبت أن ما أكثر منه المحدثون وسموه بديعا موجود من قديم في القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الجاهليين والإسلاميين، وليس وليد العصر الحديث.

يقول: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون "البديع" ليعلم أن بشارا ومسلتها وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكن كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه [1]

ويقول في موضع آخر: "وإنها غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع"[2].

ولذا كان منهجه الذي سلكه أن يبدأ بتعريف الفن ثم يسوق له الشواهد الكثيرة من القرآن والحديث وكلام الصحابة وأشعار الجاهليين والإسلاميين وكلام المحدثين المنظوم والمنثور، وهو منهج دقيق

---

[1] البديع: ص١.

[2] البديع: ص٣

محقق للغرض الذي من أجله ألف الكتاب، وقد بدأ بالاستعارة فعرفها بأنها "استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها"[1] ثم ساق شواهدها من مختلف الكلام، معقبا بذكر طائفة من الاستعارات الرديئة، وبذا سن للبلاغيين بعده أن يتحدثوا عن عيوب الفنون البلاغية، وكان ابن المعتز معتدلاً في حكمه، فهو يستحسن حين ينبغي الاستحسان ويستهجن حين ينبغي الاستهجان، بغض النظر عن القدم والحداثة، فلم يتعصب للقدماء ضد المحدثين، وبعد أن يفرغ من الاستعارة ينتقل إلى الجناس فالطباق فرد الأعجاز على الصدور ثم المذهب الكلامي، وقد أراد به -كما أراد الجاحظ - طريقة المتكلمين العقلية في دقة الاستنباط والتعليل والكشف عن المعاني الخفية.

وبعد أن ينتهي من فنون البديع الخمسة يقول: "قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا أو قال: البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها.

والبديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو، وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر، ومحاسنها كثيرة، ولا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره،

---

[1] البديع، ص٥٧

وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع، فله اختياره"[1]

وكأنه كان يدرك أن البديع أكثر من هذه الفنون الخمسة فأضاف ما ذكره من محاسن الكلام وأباح لمن يأتي بعده أن يضيف منها أو من غيرها إلى فنون البديع ما يريد إضافته.

ويبدأ بعد ذلك حديثه عن محاسن الكلام فيذكر "الالتفات" ويشير إلى صورتيه التي عرضنا لها عند أبي عبيدة والأصمعي والمبرد وينتقل إلى الاعتراض وهو اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه كقول كثير:

لو أن الباخلين - وأنت منهم ** رأوك تعلموا منك المطالا

ويستمر في عرض هذه المحاسن الثلاثة عشر وهي: الرجوع، والخروج من معنى إلى معنى - وعرف فيما بعد بالاستطراد- وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يُراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية والإفراط في الصفة -وساه قدامة "المبالغة" وفرع منها الغلو وقد تبعه البلاغيون في ذلك- وحسن التشبيه و "إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له"، وقد سمي فيها بعد بلزوم ما لا يلزم نحو قول الشاعر:

---

[1] البديع :ص٥٧

يقولون في البستان للعين لـذة وفي الخمر والمـاء الـذي غيـر آسـن**
فإن شئت أن تلقى المحاسن كلها* ففي وجه من تهوى جميع المحاسن
فقد التزم السين قبل النون، والمحسن الثالث عشر هو "حسن الابتداءات" وقد استشهد ابن المعتز لهذه المحاسن كما ذكرت - من القديم والحديث ليثبت أنها ليست من اختراع المحدثين، ويلاحظ أن ابن المعتز لم يجمع في كتابه كل ما قيل قبله من مسائل البديع بل ترك كثيرا منها كالسجع والازدواج وحسن التقسيم والاحتراس وأسلوب الحكيم والإرصاد والتجريد واللف والنشر [١] "وقد أقر هو ذلك حيث ذكر أنه لا يمكن الإحاطة بتلك الفنون.

بقي أن تعلم أن ابن المعتز لم يكن راضيا عن الإكثار من البديع والإسراف في استخدام صوره، فقد عارض في شدة هؤلاء الذين أسرفوا في التجديد واستخدام البديع وذكر منهم أبا تمام وصالح بن عبد القدوس؛ حيث أسرف الأول في استخدام البديع وأسرف الثاني في بناء شعره جميعه على الحكم والأمثال.

يقول ابن المعتز: "لو أن صالحا نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مد ميدانه"[٢] ويقول: "إن بشارًا ومسلمًا وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا

---

[١] انظر الصبغ البديعي ١٤١، وارجع إلى هذه الفنون فيها ذكرناه عند الجاحظ والمبرد.

[٢] البديع: ١

إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه، ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"[١]

نقد الشعر قدامة بن جعفر "ت ٣٣٧هـ"

يعد قدامة بن جعفر من أغزر أهل عصره علها وأوسعهم ثقافة، فقد أخذ بحظ وافر من علوم متنوعة، وبرز في اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والمنطق، كان نصرانيا ثم أسلم في أواخر القرن الثالث الهجري على يد المكتفي بالله، وقد درس قدامة الفلسفة والمنطق وتأثر بها تفكيرًا ومنهجًا في مؤلفاته التي بلغت أربعة عشر مؤلفا في موضوعات مختلفة. [٢]

والذي يهمنا من مؤلفاته، كتابه "نقد الشعر" فقد أسهم به بنصيب وافر في نمو البلاغة وتطور مسائلها وتأثر بمن سبقه وأثر فيمن بعده، ويخطئ كثير من الباحثين عندما يتحدثون عن تأثر قدامة بالفلسفة ومنطق أرسطو، فنراهم يسرفون ويغالون في هذا التأثير؛ إذ يتعقبون ما تحدث عنه قدامة من فنون ومسائل بلاغية محاولين رجوعه إلى منطق أرسطو وفلسفته [٣] ، وهذا تعسف لا نرتضيه ولا نقبله، فقدامة

---

١ البديع ، ص ٣

٢ انظر في ترجمته معجم الأدباء ١٧/ ١٢، والفهرست: ١٣٠

٣ انظر البلاغة تطور وتاريخ ٧٨ وما بعدها.

شأنه شأن سلفه وخلفه من العلماء تأثر وأثر وهذا واضح عندما ننظر فيها عرض له من مسائل البلاغة؛ إذ نجد أن ما تحدث عنه قد سبقه به كثير من العلماء، ثم نرى له إضافات معينة تأثر بها من خلفه، وهذا هو شأن البحث والدراسة، نحن لا ننكر تأثر قدامة بالفلسفة والمنطق، فقد تأثر بها في منهجه العام الذي سلكه، وفي طريقة بحثه وتفكيره، ثم في مواضع معينة ومحددة مثل حديثه عن تعريف الشعر إذ يقول: "الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى" ثم يأخذ في ذكر محترزات التعريف بطريقة منطقية فلسفية[١]، ومثل حديثه عن الفضائل عندما تناول نعوت الجودة لأغراض الشعر؛ إذ قسمها إلى أربعة أصول كبرى هي العقل والشجاعة والعدل والعفة وفرع منها مفردة أو مركبة بعضها مع بعض فضائل كثيرة[٢]

مثل هذا لا ننكر تأثر قدامة فيه بالمنطق والفلسفة، بل لا يتأتى لدارس إنكاره، ولكن الذي ننكره هو التعسف والإسراف في إثبات هذا التأثر ورد كل ما تحدث عنه قدامة أو محاولة رده إلى منطق أرسطو وفلسفته.

فتعالوا ننظر في "نقد الشعر" لنعرف غاية قدامة من تأليفه ومنهجه الذي سلكه، وفنون البديع التي تحدث عنها وما أضافه إليها من جديد في ضوء ما عرفنا عند سابقيه من تلك الفنون.

---

١ نقد الشعر ١٣.

٢ انظر نقد الشعر ٥٥.

تحدث قدامة عن غايته من تأليف الكتاب فقال: "ولم أجد أحدا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة"[١]

فهو يهدف -كما قال- إلى تمييز جيد الشعر من رديئه حيث نظر فوجد العلم بالشعر الذي ينقسم أقساما: قسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد منه، وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه وقد خاض الناس في هذه الأقسام ما عدا القسم الأخير فلم يجد فيه كتابا) ولهذا وضع "نقد الشعر" بين جيده ورديئه

ونلاحظ أن ابن المعتز كان يتحدث في نهاية كل فن من فنون البديع عما ورد معينا منه، ويعرض طائفة من الشواهد الرديئة والمعيبة، وما من شك في أن قدامة قد أفاد من ذلك، وإن كان قد أغفله فلم يشر إليه.

<u>منهجه الذي سلكه</u>

وقد تأثر قدامة بالمنطق والفكر اليوناني في منهجه الذي سار عليه حيث قسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول: تحدث في المقدمة عن أنواع العلم بالشعر والباعث له على تأليف الكتاب، ثم تحدث في الفصل الأول عن حد الشعر وبيان مراتبه وعن مقدمات تتعلق بالشعر، وعن

---

١ مقدمة "نقد الشعر".

المنهج الذي اختطه لنفسه، وتحدث في الفصل الثاني عن نعوت الجودة أما الفصل الثالث فقد خصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته.

وكانت الطريقة التي مضى عليها في تجلية هذه النعوت، أن تناول عناصر الشعر الأربعة، وهي: اللفظ والوزن والقافية والمعنى فتحدث عن نعوت الجودة لكل عنصر منها وبعد ذلك يركب هذه العناصر ويتحدث عن نعوت جودة المركب، فتحدث عن نعوت الجودة لائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت.

وما صنعه قدامة في الفصل الثاني مع نعوت الجودة، يصنع مثله في الفصل الثالث مع نعوت الرداءة، فيذكر بإزاء كل نعت جيد في الشعر النعت الرديء الذي يقابله وهو جانب يتصل بالنقد الأدبي، وقد تأثر فيه بابن المعتز حيث رأينا الأخير يذكر في نهاية حديثه عن كل فن من فنون البديع التي تناولها، ما ورد منه معيبا، ويعرض لطائفة من تلك الشواهد الرديئة المعيبة.

أهم ما تضمنه الكتاب من فنون البديع

وعندما نتتبع قدامة في منهجه الذي اختطه لنفسه نجده في أثناء حديثه عن نعوت الجودة لعناصر الشعر مفردة أو مركبة يعرض لكثير من الفنون البديعية، وأهم ما قد تعرض له ما يلي:

١-التشبيه: تحدث عنه عندما تحدث عن نعوت جودة المعنى حيث جعله غرضا من أغراض الشعر، وهذا خطأ منهجي؛ لأن التشبيه ليس غرضا من أغراض الشعر، بل فنا من فنون البلاغة، وقد أضاف قدامة جديدا إلى مبحث التشبيه فذكر أن التشبيه يقع بين شيئين بينها اشتراك في معان تعمها ويوصفان بها، وأحسن التشبيهات ما وقع بين شيئين اشتراكها في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد، ويسوق أمثلة كثيرة للتشبيهات الحسنة، ثم يشير إلى أن التشبيهات تقع على أضرب منها أن تجمع في بيت واحد، أو ألفاظ يسيرة تشبيهات كثيرة، ومنها أن يشبه شيء واحد بأشياء، ومنها أن يشبه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال، ويرى قدامة أن للشاعر أن يتصرف في تشبيهاته وأن يجدد في صوره بالخروج على مألوف الشعراء في تشبيهاتهم[١]

٢ - الترصيع: وقد جعله من نعوت جودة الوزن، وعرفه بأن يتوخى في البيت تقطيع أجزائه إلى فقرات مسجوعة أو شبيهة بالمسجوعة.

كما في قول الشاعر:

سود ذوائبها بيض ترائبها محض ضرائبها صيغت على الكرم**

ويذكر قدامة أن الترصيع يحسن إذا لم يتواتر في القصيدة أو المقطوعة، فإن تواتر كان معيبا؛ لأنه عندئذ يدل على التكلف وعلى أن الشاعر يقصد إليه ويعمده وقد أشار الجاحظ إلى هذا اللون وإن ساه

---

[١] انظر نقد الشعر: ص ٦٥.

بالسجع والازدواج وسياه قدامة بالترصيع؛ لأن قدامة كان مولعا بتغيير المصطلحات وتبديل ما استقر عليه العلماء واتفقوا على تسميته، كا سترى في كثير من الفنون التي أشار إليها.

٣ - صحة التقسيم: بعد أن فرغ قدامة من أغراض الشعر التي ذكر فيها التشبيه كما أسلفنا- يشير إلى أن هذه الأغراض إنها هي وجوه من جملة معاني م تلك المعاني؛ فإنه سيعني بذكره وبيانه، ثم يأخذ في سرد تلك التي تعم جميع المعاني الشعرية فيذكر: صحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة الشعر، أما ما يعم جميع التفسير والتتميم والمبالغة والتكافؤ والالتفات.

أن يبتدئ الشاعر فيضع أقساما، ثم يقول في تعريف صحة التقسيم: هي يستوفيها ولا يغادر قسما منها.

كما في قول نصيب:

فقال فريق القوم لا وفريقهم * نعم وفريق قال: ويحك ما ندري

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام، ويشير في نعوت الرداءة إلى فساد الأقسام في بيت جرير:

صارت حنيفة أثلاثا فثلثهم ** من العبيد وثلث من مواليها

فيقول: بلغني أن هذا الشعر أنشد في مجلس ورجل من بني حنيفة حاضر فقيل له: من أيهم أنت؟ فقال من الثلث الملغي ذكره [١]، وقد مر

---

(١) انظر نقد الشعر ١٨٨.

بك حديث الجاحظ، عن هذا اللون وإفاضته في إيضاحه وفي الاستشهاد له، فقدامة يستمد منه ويتأثر به.

٤-صحة المقابلات: وهي أن يرتب الشاعر معانيه ترتيبا يوفق فيه بين طائفة منها ويخالف بين طائفة ثانية بحيث تتقابل في وضوح، أو يشرط شروطا ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيها يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفيها يخالف بضد ذلك، ونلاحظ أنه يشير في هذا التعريف إلى مراعاة النظير وإلى المقابلة وهي لون من ألوان الطباق، وقد استمد السكاكي ما اشترطه في المقابلة من تعريف قدامة هذا.

ومما استشهد به قدامة قول الشاعر:

فواعجبا كيف اتفقنا فناصح * وفي ومطوي على الغل غادر**

حيث قابل الشاعر النصح والوفاء بالغل والغدر...

ومن فاسد المقابلة قول امرئ القيس:

فلو أنا نفس تموت سوية * ولكنها نفس تساقط أنفسا**

ومعنى البيت لو أنها نفس تموت موتة واحدة لهان الأمر، ولكنها نفس تموت موتات "وتتساقط أنفسا" يقول قدامة: وللعدول عن هذا العيب غير الرواة هذا البيت، فأبدلوا في مكان: "جميعة" لأنه في مقابلة "تساقط أنفسا" أليق من سوية"[١]

وجودته إلا أتى به إما بقصد المبالغة وإما بقصد الاحتياط.

---

[١] انظر نقد الشعر ،ص١١٨

فمن الأول قول نافع بن خليفة الغنوي:

رجـــال إذا لم يقبل الحق منهم* ويعطوه عاذوا بالسيوف القواطع

فقد تمم جودة المعنى بقوله: "ويعطوه" وابن المعتز كما مر بك - قد سمي هذا بالاعتراض.

ومن الثاني قول طرفة:

فسقـــى ديارك - غر مفسدها *** صوب الربيع وديمة تهمي

وقد سمى الجاحظ هذا بإصابة المقدار، وسماه المتأخرون باسم الاحتراس أو التكميل.

٧-المبالغة: وقد جعلها في مرتبة أقل من الغلو الذي يبنى على الإفراط الشديد، فهو يفضل الغلو على المبالغة، وقد سمي ابن المعتز المبالغة باسم الإفراط في الصفة، وأكثر البلاغيين على تسمية قدامة.

ومن أمثلتها عنده قول عمير بن الأيهم التغلبي:

ونكـــرم جارنا ما دام فينا*** ونتبعه الكرامة حيث مالاً

٨-التكافؤ: وهو الطباق عند ابن المعتز وغيره، فقد ساء قدامة بالتكافؤ، وأطلق الطباق على الجناس التام، وكأنه مولع - كما قلت - بتبديل وتغيير المصطلحات.

ومن شواهد التكافؤ قول الشاعر: ــ

حلو الشمائل وهو مر باسل ** يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

(٩) الالتفات: وقد أطلقه على صورة من صورتيه، وهو أن يفرغ الشاعر من المعنى ونظن أنه سينتقل إلى غيره فإذا به يعود إليه واصلاً كلامه به، وقد ذكر الأصمعي هذه الصورة مع الصورة الأخرى -كما رأيت- وتبعه في ذلك ابن المعتز، وجاء قدامة فذكر إحدى الصورتين دون الأخرى.

١٠ - المساواة: وبعد أن فرغ قدامة من نعوت جودة المعنى انتقل إلى ائتلاف اللفظ مع المعنى فذكر نعوت الجودة لهذا الائتلاف وهي: المساواة والإشارة والإرداف والتمثيل والمطابق.

فالمساواة: أن يكون اللفظ مساويا المعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، والإشارة: أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة إيماء إليها أو لمحا يدل عليها.

والإرداف: أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، كقول ابن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل* أبوها وإما عبد شمس وهاشم**

وقد سمى الجاحظ هذا بالكناية وتبعه في هذه التسمية ابن المعتز كما رأيت...

والتمثيل: وهو عنده يشمل الاستعارة التمثيلية وبعض صور الكناية، وقد عرفه قدامة: بأن يريد الشاعر الإشارة إلى معنى فيضع كلاما يفهم منه معنى آخر، كقول ابن ميادة:

ألم تـك في يمنـى يـديك جعلتنـي فـلا تجعلـني بعـدها في شـمالك**

والمطابق: وقد أطلقه -كما ذكرت- على الجناس التام، كما في قول الأفوه الأودي:

وأقطع الـهـوجل مستأنـسـا * بهوجـل عيـرانة عنتـريـس**

أما الجناس غير التام فقد أبقى على تسميته بالجناس أو المجانس كما في قول حيان بن ربيعة الطائي:

لقـد علـم القبائـل أن قـومي** لهـم حـد إذا لبـس الـحـــديد**

وينتقل إلى ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت فيذكر من نعوت الجودة لهذا التآلف:

(١) التوشيح: وهو ما سماه عبد الله بن المعتز برد أعجاز الكلام على ما تقدمها، وقد عرفه قدامة بقوله: أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ومعناها متعلقا به، حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي منها البيت إذا سمع أول البيت عرف آخره، وبانت له قافيته.

(٢) الإيغال: وقد استمده من الأصمعي على نحو ما مر بك عنده.

ومما يلاحظ أن قدامة لم يتحدث عن الاستعارة في نعوت الجودة، بل تحدث عنها في نعوت الرداءة، على الرغم من أن ابن المعتز قد جعلها

من فنون البديع الخمسة، وقد أطلق عليها قدامة أي على الاستعارة المعيبة اسم المعاظلة، وقال: المعاظلة هي فاحش الاستعارة، كما في تسمية بعض الشعراء رجل الإنسان حافرا، ولا نوافقه على هذا الإطلاق، لأن المعروف أن المعاظلة هي ركوب الكلام بعضه بعضا أو التعقيد اللفظي.

ومما أشار إليه قدامة أيضا: "التصريع" وقد تحدث عنه في نعوت جودة القافية وعرفه بقوله: أن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، وذكر أن فحول الشعراء يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه وربما صرعوا أبياتا أخرى من القصيدة بعد البيت الأول وذلك يدل على اقتدار الشاعر وسعة بحره.

تلك أهم فنون البديع في كتاب "نقد الشعر" وقد استمدها قدامة من كتابات السابقين، وكانت له إضافات جيدة، كما كان مولعا بتغيير المصطلحات وتسمية الفنون بغير ما ساها به من سبقه وبخاصة عبد الله بن المعتز، أما تأثره بالفلسفة والمنطق فقد كان محدودا على نحو ما بيناه، وليس إلى الحد الذي ذكره شوقي ضيف وغيره؛ حيث أسرفوا في قولهم بهذا التأثر وتكلفوا أشد التكلف في رد ما قاله قدامة إلى المنطق والفلسفة وهذا ما لا نقبله، ولا ننكر في ذات الوقت أن قدامة قد تأثر بالثقافات الأجنبية، وبخاصة الفلسفة والمنطق على نحو ما بينا.

كتاب "البرهان فى وجوه البيان"

هذا الكتاب لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، كانت أسرته تخدم في الدواوين العباسية منذ عصر المأمون وكان جده سليمان من جلة الكتاب وقد وزر إسحاق للخليفة المهتدي بالله والخليفة المعتمد على الله، وتوفي سنة ٣٧٢هـ، وهذا ما يؤكد أن إسحاق الذي سكنت المراجع عن التعريف به، كان يعيش في أوائل القرن الرابع الهجري فهو معاصر قدامة بن جعفر، وهذا ما يفسر لنا السبب في أن جزءا من هذا الكتاب قد طبع باسم "نقد النثر" ونسب خطأ إلى قدامة وقد شكك طه حسين في تلك النسبة، وذكر أنه في الغالب لكاتب شيعي ظاهر التشيع قد صنف كتبا عدة في الفقه وعلوم الدين(١)

وظل التشكك قائما حتى حل محله اليقين بأن الكتاب ليس لقدامة وإنما هو لابن وهب، وذلك عندما نشر مقال في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م، يقول فيه ناشره: "إن هذا الكتاب الذي طبع باسم "نقد النثر" ونسب خطأ إلى قدامة إنها هو جزء من كتاب "البرهان في وجوه البيان" لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، عثر عليه في بعض المكتبات الأوروبية (٢)

---

(١) انظر مقدمة نقد النثر ص ٠١٩

(٢) انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الرابع والعشرين ص ٧٣.

وفي خاتمة الكتاب ومقدمته ما يدل على أن اسمه الحقيقي: "البرهان في وجوه البيان" وليس نقد النثر؛ إذ يقول ناسخه في خاتمته: "كمل البيان بحمد الله تعالى وحسن عونه" ويقول مصنفه في مقدمته مبرزا سبب تأليفه مخاطبا أحد أصدقائه: "ذكرت لي وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذي ساه كتاب البيان والتبيين، وأنك وجدته إنها ذكر فيه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه بوصف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه، وسألتني أن أذكر لك جملاً من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله محيطة بجماهير فصوله، يعرف بها المبتدئ معانيه، ويستغني بها الناظر فيه، وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول له الكتاب، وقد ذكرت في كتابي هذا ملا من أقسام البيان وفقرا من آداب حكماء أهل هذا اللسان، لم أسبق المتقدمين إليها، ولكني شرحت في بعض قولي ما أجملوه واختصرت في بعض ذلك ما أطالوه وأوضحت في كثير منه ما أوعروه[1]

وبهذا يتضح لك أن الكتاب لابن وهب وليس لقدامة وأن اسمه "البرهان في وجوه البيان" وليس "نقد النثر" ولعل السبب في نسبته إلى قدامة خطأ -كا ذكرت- يرجع إلى سكوت المراجع عن التعريف بالمؤلف الحقيقي للكتاب، ومعاصرة المؤلف "ابن وهب" لقدامة بالإضافة إلى تأثره بالفلسفة والمنطق، كما تأثر قدامة بها، وبعد أن

[1] نقد النثر، ص٣

وضح لك اسم الكتاب ومؤلفه تعال ننظر في سبب تأليفه له وما تضمنه من فنون البديع ...

يطالعنا المؤلف في المقدمة كما أشرنا- بأنه ألفه معارضة لكتاب الجاحظ "البيان والتبيين"، وقد وصفه بأن مسائل البيان فيه تختلط ولا تتضح، فأراد أن يوضح وأن يشرح ما أجمل، وكأنه يريد أن يقول: إن البحث في البيان ليس من شأن المتكلمين من أمثال الجاحظ إنما هو من شأن المتفلسفة أمثاله...

ولا يعنينا ما في الكتاب من آرائه واعتقاداته المبنية على التشيع، وإنما يعنينا ما فيه من حديث عن فنون البلاغة ومسائل البيان، فقد أشار إلى أن العبارة تنقسم إلى خبر وطلب، وقد أفاد البلاغيون من ذلك فتحدثوا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، كما تحدث عن التشبيه وقسمه إلى تشبيه حسي وتشبيه معنوي وعن اللحن والرمز مستمدا من كتابات الجاحظ، وقد أطال في ذلك وقسم الرمز إلى قسمين: رمز يراد به التعمية، ورمز يراد به كثرة الصور والأخيلة وهو الرمز الأدبي... وتحدث عن الوحي ويريد به ما سماه قدامة باسم الإشارة وهما يستمدان من الجاحظ الذي ذكر أن "مما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي والإشارة" كما تحدث عن الأمثال واللغز والحذف، وعن الالتفات وقد سماه باسم "الصرف" وعن المبالغة، وعن القطع والعطف، وربما هيأ ذلك لظهور مبحث الفصل والوصل عند البلاغيين

المتأخرين... كما تحدث عن التقديم والتأخير وعن صحة المقابلات... إلى غير ذلك من فنون البلاغة. وكان أثر الفلسفة والمنطق كما ذكرت- باديا على المؤلف في أفكاره وعباراته، كما أن الكتاب مليء بالآراء والاعتقادات الشيعية التي ينبغي أن نضرب عنها صفحا..

كتب الإعجاز القرآني

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري برزت مؤلفات عدة للمتكلمين الذين تحدثوا عن أوجه الإعجاز القرآني، وقد حوت تلك المؤلفات العديد من مسائل البلاغة وفنونها، ومن أهم هذه المؤلفات:

رسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني ت"٣٨٦هـ"

والرماني هو علي بن عيسى الرماني، أحد أعلام المعتزلة في عصره، وله مصنفات كثيرة في التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام، وقد ألف هذه الرسالة جوابًا لسؤال وجه إليه، طلب سائله من الرماني أن يحمل له نكات الإعجاز ويفسرها له بلا تطويل في الحجاج... وقد استهل الرماني الرسالة برد تلك النكت إلى سبع جهات هي: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، التحدي للكافة، الصرفة، البلاغة، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة. نقض العادة، قياس القرآن بكل معجزة، ثم أخذ يفسر القول في كل جهة من هذه الجهات. ويعنينا منها البلاغة، وكان حديثه عنها على النحو التالي:

جعلها ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا؛ فالعليا هي بلاغة القرآن الكريم، والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغات البشر علوا ودنوا، ثم يذكر أن البلاغة على عشرة أقسام هي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان، وأخذ يفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام مبتدئا بتعريفه ثم مصورا شعبه، ممثلاً لها بآي الذكر الحكيم...

فيعرف الإيجاز بقوله، إنه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، ثم يذكر أنه على وجهين: إيجاز بالحذف، وهو ما أسقطت فيه كلمة للاستغناء عنها بدلالة غيرها من الحال أو من فحوى الكلام، ويسوق الشواهد العديدة من الآيات الكريمة لأنواع الحذف المختلفة كحذف الأجوبة وحذف المضاف، وحذف الموصوف وحذف الصفة، وغير ذلك، والوجه الثاني: إيجاز القصر وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف، مثل : "ولكم في القصاص حيوة " [البقرة: ١٧٩]، ثم مضى يفرق بين الإيجاز والإخلال والإطناب والتطويل وبهذا صور الرماني الإيجاز بنوعيه تصويرا نهائيا.

_ وانتقل إلى التشبيه فعرفه بأنه: "العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل، وبذلك قسم التشبيه إلى حسبي وعقلي وسمي الحسي تشبيه حقيقة والعقلي تشبيه بلاغة، وأخذ يفصل القول في تشبيه البلاغة مبينا طبقاته فذكر أنه يأتي على وجوه: منها إخراج

ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه كتشبيه أعمال الكفار بالسراب في قوله تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) [النور: ٣٩]، ومنها إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كتشبيه ارتفاع الجبل بارتفاع الظلة في قوله تعالى: (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) [الأعراف: ١٧١]، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة كقوله تعالى: (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) [الحديد: ٢١]، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، كما في قوله تعالى: (خلق الإنسان من صلصل كالفخار) [الرحمن: ١٤].

ويذكر الرماني أن حسن التشبيه يكمن في تقريبه بين الأمور المتباعدة، ويمتاز تشبيه البلاغة بأنه يقرن الأغمض بالأوضح فيبين وينكشف، إلى غير ذلك من التفصيلات التي ذكرها الرماني في التشبيه والتي انتفع بها البلاغيون بعده وبخاصة الإمام عبد القاهر الجرجاني.

ثم يمضي إلى الاستعارة فيعرفها بأنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة، فالفرق بينها وبين التشبيه أن الكلمات في التشبيه نقل لها معانيها الحقيقية بخلاف الكلمات في الاستعارة؛ فإنها تدل على ما لم توضع له في اللغة، ثم يذكر أن كل استعارة لابد فيها من مستعار ومستعار له

ومستعار منه، ويعرض أمثلة مختلفة يصور فيها فضل الاستعارة على الحقيقة، وأنها أبلغ منها في قوة البيان ...

وهكذا يستمر الرماني في الحديث عن أقسام البلاغة العشرة، فيتحدث عن التلاؤم وهو يريد به حسن النظم وقوة السبك ويقسم الكلام إلى متنافر يستثقله اللسان وتمجه الآذان، ومتلائم في الطبقة الوسطى، وفيه تدخل بلاغة البلغاء، ومتلائم في الطبقة العليا وهو أسلوب القرآن الكريم، وهو هنا يستمد من الجاحظ وينقل كثيرا من الشواهد التي عرضها لتنافر الحروف وتنافر الكلمات، ويتحدث عن الفواصل فيعرفها بأنها: حروف متشاكلة مع المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، ويذكر أنها ترد على وجهين: وجه على الحروف المتجانسة كما في قوله تعالى: «والطور(١) وكتب مسطور (٢) في رق منشور (٣) " [الطور: ١-٣] ووجه على الحروف المتقاربة، كما في قوله عز وجل: «ق والقرءان المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكفرون هذا شيء عجيب" [ق: ١-٢]

ويفرق بين الفواصل في القرآن وبين الأسجاع، فيقول: "الفواصل بلاغة والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع؛ فالمعاني تابعة لها، ولهذا فالأسجاع يتضح فيها التكلف والاستدعاء، بخلاف الفواصل فإنها تصبر إلى قرارها وتنزل في مكانها.

ويتحدث عن التجانس فيذكر أن تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة، ويجعله على نوعين مزاوجة، وقد عرفت فيما بعد بالمشاكلة كما في قوله تعالى: "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» [الأنفال: ٣٠]، ومناسبة وأراد بها جناس الاشتقاق كما في قوله تعالى: " ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » [التوبة: ١٢٧]

ويتحدث عن التصريف فيعرفه بأنه تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كتصريف الألفاظ المشتركة في أصل واحد... وقد أراد به القصص القرآني وورود القصة بطرق مختلفة وفي مواضع متعددة الوجوه من الحكمة منها التصريف في وجوه البلاغة من غير نقصان من أعلى مرتبة ومنها تمكين العفة والعبرة ومنها قل الشبهة في المعجزة.

ويتحدث عن التضمين فيقول: إنه حصول معنى في الكلام من غير ذكر له، وهو على وجهين ما يدل عليه الكلام دلالة إخبار كدلالة كلمة مكسور على "كاسر"، وما يدل عليه دلالة قياس كدلالة البسملة على تعظيم الله تعالى ويتحدث عن المبالغة فيعرفها بأنها: الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة، ويذكر أنها على وجوه: منها مبالغة عن طريق البنية كصيغ المبالغة مثل: غفار وغفور، وثواب، ومنها مبالغة بالتعميم كقولك: أتاني الناس والذي

أتاك جماعة منهم، ومنها مبالغة بإخراج التعبير مخرج الشك، كما في قوله تعالى: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلل مبين) [سبأ: ٢٤]، ومنها مبالغة بحذف الأجوبة، كما في قوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا على النار) [الأنعام: ٢٧]

وتحدث عن البيان وهو القسم العاشر فعرفه بقوله: "الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك"

فهو يريد به أنواع الدلالة على المعنى ويذكر أنها على أربعة أقسام: كلام وحال وإشارة وعلامة، وهو يستمد هنا من كلام الجاحظ الذي أفاض في الحديث عن أوجه الدلالة وبين أنها خمسة أوجه: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال

إعجاز القرآن للباقلاني ت ٤٠٣ هـ

هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، من أعلام الأشاعرة، وله مصنفات كثيرة، وهذا الكتاب "إعجاز القرآن" من أهم مصنفاته، وهو يرد فيه ردا عنيفا على الملاحدة والمشككين فيفند مطاعنهم ويدفع شبهه ويرفض رفضا قويا القول بالصرفة راجعا إعجاز القرآن الكريم إلى ثلاثة أوجه وهي: تضمنه الإخبار عن الغيب، القصص الديني وسير الأنبياء، بلاغته، وعندما تقرأ في إعجاز القرآن للباقلاني تدرك أنه ينقصه الدقة في التبويب والتنظيم، فهو غير دقيق في منهاجه؛ إذ تجده يخرج من فصل إلى فصل والمضمون الذي يتحدث عنه واحد...

وقد عقد الباقلاني فصولاً عدة لبيان أن القرآن معجز وإيضاح أوجه إعجازه والرد على الملاحدة والمشككين، ونفي الشعر والسجع عن القرآن، ونراه يسوق طائفة من أحاديث الرسول وأقوال الصحابة ليلمس القارئ فرق ما بينها وبين القرآن... ويدرس معلقة امرئ القيس: _

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل* بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ولامية البحتري:

أهلا بذلكم الخيال المقبل*** فعل الذي نهواه أم لم يفعل

ويبين ما فيها من عوار وتكلف وحشو وخلل وتطويل ولفظ غريب، وكيف تتفاوت أبياتها بين الجودة والرداءة، والغرابة والسلاسة ليبرز بذلك جمال النظم القرآني وأنه وحده الذي لا تفاوت فيه، بينما يتفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى في القصيدة الواحدة؛ فالقرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز جميع الخلق عنه.

ويعقد فصلاً يتحدث فيه عن وجوه البديع وهل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن، فيتحدث فيه عن الاستعارة والإرداف والمماثلة والمطابقة والجناس والمبالغة والغلو والإيغال وصحة التقسيم والتتميم والترصيع وطباق السلب والكناية والتعريض والعكس والتبديل والالتفات والاعتراض والرجوع والتذييل، وغير ذلك من فنون البديع.

ويشير في كل ذلك إلى آراء السابقين وما بينهم من خلافات في تحديد هذه الفنون وتقرير مصطلحاتها، ثم يقول: "ووجوه البديع كثيرة جدا، فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع، وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن الكريم من هذه الأبواب التي نقلناها وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها [١] ثم يذكر أن الإعجاز القرآن مرده إلى نظمه العجيب الذي لا يمكن أن يحتذى، ويعقد فصلاً آخر بعنوان: "وصف وجوه البلاغة": فيلخص فيه الوجوه العشرة التي ذكرها الرماني. ثم يذكر أن بلاغة القرآن لا تقع بوجه من الوجوه التي عددها الرماني، بل هي تقع بها مقترنة في نسقه المحكم، بحيث لا يقال: إن التشبيه معجز أو التجنيس معجز، إنها يقال: إنها معجزان بنظمها وصوغهما الذي يسمو إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة الثلاث [٢]

وبهذا يتضح لنا رأي الباقلاني في وجوه البديع أتحقق الإعجاز أم لا؟ فهو يرى أن وجوه البديع إذا نظر إليها مجردة عن نظمها بعيدة عن

---

[١] إعجاز القرآن، للباقلاني، ص١٦١

[٢] انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٩٦

سياقها، لا يقال إنها تحقق الإعجاز، لأنها مما يتعلم ويتوصل إليها بالتدرب والمران. أما إذا نظر إليها في سياقها ونظمها البديع العجيب الذي لا يدانيه نظم، فعندئذ يقال: إنها معجزة بنظمها وسياقها وصياغتها التي تسمو إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة الثلاث.

إعجاز القرآن لعبد الجبار "ت ٤١٥"

هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية بإيران أكبر أعلام المعتزلة في عصره، وإعجاز القرآن هذا هو الجزء السادس عشر من كتابه: "المغني في أبواب التوحيد والعدل" ويقع في ثمان وأربعين وثلاثمائة صحيفة، وقد عرض عبد الجبار في هذا الجزء رأيين في الإعجاز، أولها لأستاذه أبي هاشم الجبائي وثانيها رأيه هو، وكأنه أدرك في فكرة أستاذه نقصا حيث لم يعتد بالنظم في القول بالإعجاز، وقد عرض عبد الجبار كل رأي منها في فصل مستقل يقول في أولها: "وقال شيخنا أبو هاشم:

إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار الأمرين؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى "لم يعد فصيحا" فإذا يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحدا وتقع المزية في الفصاحة، فالمعتبر ما ذكرناه، لأنه الذي يتبين في كل نظم

وكل طريقة، وإنا يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء يسبق إليه ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء، فيساويه في ذلك النظم، ومن يفضل عليه يفضله في ذلك النظم[1]

فهو لا يعتد بالنظم، ولا يقر بأنه يصلح مفسرا للفصاحة والبلاغة، وكأنه يرد على الجاحظ وغيره من العلماء يرجعون إعجاز القرآن إلى نظمه البديع العجيب، والمعول عليه عنده في فصاحة الكلام هو جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وقد أدرك عبد الجبار ما في رأي أستاذه من قصور كما قلنا- ومن خطأ إهمال النظم وعدم الاعتداد به فعقد فصلاً ثانيا يصور فيه رأيه ويقر بالنظم مرجعا للمزية والفصاحة، ثم أخذ يبين معنى النظم، وما ينبغي مراعاته واعتباره فيه من عوامل، وقد أفاد عبد القاهر من ذلك كثيرا في تقرير نظرية النظم وإبرازها والكشف عن دقائقها وتحليل شواهدها -كما سنرى -

يقول عبد الجبار: " واعلم أن الفصاحة لا تظهر في إفراد الكلام، وإنها تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صنف وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابعة ولأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم

---

[1] إعجاز القرآن "المغني" ج١٦ ص ١٩٧

لابد من اعتبار مثله في الكليات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون ما عنا الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنها تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها.

فإن قال قائل: فقد قلتم إن في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى، فهلا اعتبر نموه؟ قيل له: إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية، ولذا نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق على أنا تعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذا يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عنده الألفاظ التي يعبر بها عنها، فإذا صحت هذه الجملة، فالذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذي به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذي يختص لموقع أو الحركات التي تختص الإعراب، فبذلك تقع المباينة بين الكلام [1]

وواضح أنه هنا يناقض رأي أستاذه الذي ذكره آنفا، ويقر بالتعويل على النظم الذي هو الضم على طريقة مخصوصة، فالكلمة لا تعد فصيحة في نفسها، بل لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها، لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها، ولابد من ملاحظة حركاتها في الإعراب، ولابد من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير.

---

(١) المغني ج ١٦ ص ١٩٩.

ويضيف عبد الجبار في شرح هذه النظرية وبيان ما للنظم من مزايا معتبرة فيقول: "ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها، وكذلك القول في جملة من الكلام، وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة، وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه، فأما حسن النغم وعذوبة القول فما يزيد الكلام حسنا على السمع، لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة، ولا فضل فيها ذكرناه بين الحقيقة والمجاز، بل ربما كان المجاز أدخل في الفصاحة لأنه كالاستدلال في اللغة، وكذلك فلا معتبر بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه، لأن كل ضرب من ذلك ربما يكون أدخل في الفصاحة في بعض المواضع من صاحبه"[1]

وقد أفاد عبد القاهر الجرجاني في تجليته لنظرية النظم، من كلام عبد الجبار هذا، وبين أن اللفظة المجردة لا يعتد بها، ودليل ذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، وقد عرض لذلك الشواهد الكثيرة محللاً لها وموضحا، كما بين أن الصور البيانية من الاستعارة وغيرها لا دخل لها في النظم الذي عليه المعول في معرفة الإعجاز ومزايا الكلام، على نحو ما سترى عند حديثنا عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز إن شاء الله .

---

[1] المغني ج ١٦ ص ٢٠٠.

كتب أدبية نقدية مبنية على أسس بلاغية

وبجانب هذه الكتب التي برزت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وتناولت أوجه الإعجاز القرآن، وجدت مؤلفات أخرى أدبية دارت حول الشعر والشعراء، وأهم هذه المؤلفات: عيار الشعر لابن طباطبا، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، والوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني. فأنت تعلم أنه في القرن الثالث الهجري وجد مذهبان واضحان في الشعر، مذهب أبي تمام الذي أسرف في المحسنات البديعية إسرافا شديدا وتميز بالتعمق في المعاني والغوص وراءها، ومذهب البحتري الذي لم يسرف في البديع ولم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا ثقافة، وكان لكل شاعر أنصار ومؤيدون، فجاء كتاب الموازنة لينظر في شعر الشاعرين ويوازن بين طريقتيها...

وفي الوقت نفسه كان المتنبي قد ملأ الدنيا دويا بشعره وما اتخذه من أسلوب التكلف الذي يؤدي المعاني الموروثة بطرق ملتوية جديدة وكان ذا بصيرة نافذة، كثير الترحال معتدا بنفسه، ذا كبرياء وترفع فكثر خصومه في كل مكان، في حلب ومصر وبغداد ومدينة الري، وألفوا كتبا ورسائل لبيان سرقاته والكشف عن مساوئه فجاء كتاب الوساطة لينظر في شعر المتنبي متوسطا بينه وبين خصومه ليحق الحق ويبطل الباطل في شعره، وكلام النقاد...

أما كتاب عيار الشعر فكتاب عام لا يختص بشاعر بعينه، وهذه الكتب الثلاثة كتب القدية قامت على أمن بلاغية، وامتزجت فيها مباحث النقد بالبلاغة... فتعالوا ننظر فيها ونتجول في صفحاتها لنقف على ما بها من أسس بلاعية، وتعرف مدى إفادتهم من السلف، وإفادة الخلف مما أشاروا إليه وقرروه.

عيار الشعر لابن طباطبا ت ٣٢٢هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي الأصبهاني، كان من نقاد عصره وشعرائه، وكتاب عيار الشعر من أهم مؤلفاته، وهو كتاب ألفه في صناعة الشعر ومعرفة الميزان الذي به تقاس بلاغته... وقد تأثر كثيرا بالجاحظ وكتاباته وبابن قتيبة؛ إذ نراه يتحدث عن الملاءمة بين الألفاظ والمعاني، وبين الكلام وأحوال المستمعين، وما ينبغي على الشاعر من إحكام العبارة وحسن النظم، وحسن التخلص من غرض إلى غرض، وينقل حديث ابن قتيبة عن اللفظ والمعنى، في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فيشير إلى تقسيم الشعر إلى ما حسن لفظه وجاد معناه، وما حسن لفظه دون معناه، أو معناه دون لفظه، وما تأخر لفظه ومعناه.

ومن أهم المباحث البلاغية التي عرض لها "مبحث التشبيه" فقد فصل فيه القول، وبخاصة في التشبيهات الحسية، وعرض لروائعه ورديئه، وتحدث عن طريقة العرب في التشبيه، فذكر أنهم ضمنوا أشعارهم من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانهم وحسهم إلى ما في طبائعهم وأنفسهم من محمود الأخلاق ومذمومها، وفصل القول في وجوه التشبيه وأقسامه، فأبرز أن الشيء قد يشبه بالشيء صورة وهيئة كما في قول امرئ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا***وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

والجزع: خرز فيه بياض وسواد، وقد يشبه الشيء بالآخر لونًا وصورة كتشبيه الثغر بالأقحوان؛ إذ لونها وصورتها سواء، وقد يشبه الشيء بالشيء صورة ولونا وحركة وهيئة كقولهم: الشمس كالمرآة في كف الأشل، وقد يشبه الشيء بالآخر حركة وهيئة، كقول الأعشى متغزلاً:

كأن مشيتها من بيت جارتها ** مر السحابة لا ريث ولا عجل

وقد يشبه الشيء بالشيء معنى لا صورة، كتشبيه الجواد بالبحر والشجاع بالأسد، والماضي في الأمور بالسيف، وقد يشبه الشيء بالشيء حركة وبطئا وسرعة، كقول امرئ القيس في وصف جواده:

مكر مفر مقبل مدبر معا * كجلمود صخر حطة السيل من عل

وقد يشبه الشيء بالشيء لونا، كتشبيه الخمر بدم الذبيح والليل بلون الغراب وقد يشبه الشيء بالشيء صوتا، كتشبيه صوت النبل في الحروب بنواح الثكلى. وبهذا يتضح لك اختلاف وجهة نظر ابن طباطبا إلى التشبيه، عن وجهة نظر الرماني فبينها اهتم الأخير بالتشبيه العقلي وساه تشبيه البلاغة اهتم ابن طباطبا بالتشبيهات الحسية، وفصل فيها القول على نحو ما رأيت، وقد أشار إلى بعض أدوات التشبيه كالكاف وكأن ومثل وتراه وتخاله ويكاد، ونوه بالتشبيهات الغريبة البديعة، كقول مسلم بن الوليد:

وإني وإسماعيل يوم فراقه** لكالغمد يوم الروع زايله النصل

فإن أغش قوما بعده أو أزرهم

فكالوحش يدنيها من الأنس المحل[١]

وتحدث عن التشبيهات المعيبة معللاً أسباب عيبها، فقد يكون العيب راجعا لشدة الغلو فيها أو لنبو التشبيه عن الذوق أو لتشبيه كبير بصغير كتشبيه السهام بأعناق الظباء...

كما تحدث ابن طباطبا عن فنون بديعية كثيرة أشار إليها السابقون منها: رد الأعجاز على الصدور وما ينبغي على الشاعر من مراعاة

[١] يوم الروع: يوم الحرب. زايله: فارقه، المحل: الجدب.

تماسك المعاني، واتصال أول الكلام بما يليه، حتى لكأنه يستدعيه، ومنها الكناية، وقد ساها التعريض، وعن الغلو كما في قول أبي نواس.

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ** لتخافك النطف التي لم تخلق

وتحدث عن السرقات الشعرية، فأشار إلى أن للشاعر أن يتناول المعاني الموروثة بشرط أن يتلطف في عرضها وأن يعمل الحيلة في تناولها فينقلها من غرض إلى غرض.

ونبه الشعراء إلى ضرورة تغير الكلمات المعبرة الموحية والبعد الكليات القلقة التي ينبو بها موضعها ونستنكره فيه. وتحدث عن براعة الاستهلال وحسن التخلص وما ينبغي على الشاعر من الملاءمة بين معالي الشعر ومبانيه، وأن يخلو في افتتاحياته مما يتشاءم به ويتطير وبخاصة في المديح.

وتحدث عن الوحدة العضوية فأشار إلى ضرورة أن تترابط أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكما متشاكلاً.

انظر إلى قوله: "أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره على نحو ما ينسقه قائله، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها والأمثال باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا

وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر عن كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا على ما شرطناه في أول الكتاب حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم، لا تناقض في معانيها، ولا وهي في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها"[1]

الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي"ت ٣٧١هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية، سريع الإدراك، وهو معدود من أئمة البيان والنقد الأدبي، وصفه صاحب الفهرست بأنه مليح التصنيف جيد التأليف، يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب.

مؤلفاته:

له مؤلفات مختلفة في اللغة والشعر، منها: كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء، وكتاب معاني شعر البحتري، وكتاب نثر المنظوم، وكتاب الرد على ابن عمَّار فيما خطَّأ فيه أبا تمام، وكتاب في أنّ الشاعرين لا تتفق خواطرهما، وكتاب ما في معيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ، وكتاب فرق ما بين الخاص والمشترك من معاني الشعر،

[1] عيار الشعر ص ١٢٩

وكتاب تفصيل شعر امرئ القيس على الجاهلين، وكتاب في شدة حاجة الإنسان أن يعرف نفسه، وكتاب نقد الشعر، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب الحروف، وديوان شعره.

وأهمها هذا الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه "الموازنة" وقد ألفه ليوازن بين شعر الشاعرين الكبيرين: أبي تمام والبحتري.

ونقل ياقوت عن القاضي أبي القاسم التنوخي أن مولد أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي بالبصرة، وأنه قدم بغداد يحمل عن الأخفش والخفاجي والزجاج وابن دريد وابن السراج وغيرهم اللغة والنحو. وروى الأخبار في آخر عمره بالبصرة، وكان يكتب بمدينة السلام لأبي جعفر هارون بن محمد الضبي ولغيره، وكتب بالبصرة لآل عبد الواحد وغيرهم ... وكان كثير الشعر حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرًا بالتشبيهات، قال: ولأبي القاسم تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها، منها كتاب الموازنة بين البحتري وأبي تمام، وهو كتاب حسن، وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه، ونسب إلى الميل مع البحتري فيما أورده، والتعصب على أبي تمام فيما ذكره. توفي الآمدي سنة ٣٧٠هـ، وقد طبع كتاب الموازنة عدة طبعات

والذي يعنينا هنا ما في الكتاب من أسس بلاغية قامت عليها تلك الموازنة، وأهمها ما يلي: السرقات الشعرية: فقد تحدث عن سرقات الشاعرين: وذكر أن كثيرًا من المعاني عام فهو للشعراء جميعا

يشتركون فيه دون أن يقال إن أحدهما أخذ من الثاني، لأن حكمه فيه حكم صاحبه، فلا فضل لسابق على تال... أما الذي ينبغي أن يقال إنه مأخوذ أو مسروق فهو المعاني الخاصة والبديع الذي ليس للشعراء فيه اشتراك الاستعارة: وتحدث الآمدي عن الاستعارة فقال: "إنها استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه "[1] ويعرض لطائفة من الاستعارات القبيحة عند أبي تمام كقوله:

يا دهر قوم من أخدعيك ** فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله:

تروح علينا كل يوم وتغتدي ***خطوب كأن الدهر منهن يصرع

وقوله في رثاء غلام:

أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب

ويرجع الآمدي قبح هذه الاستعارات إلى بعد المشبه عن المشبه به وعدم وجود وجه شبه يجمع بينهما... ولنا أن ندافع عن أبي تمام فنقول: إن الاستعارة في الأبيات من قبيل الاستعارة المكنية التي تبنى ـغالباـ على التشخيص والتجسيد ونقل عناصر الطبيعة والمعنويات

---

[1] الموازنة ص ١٢٤

من عالمها إلى العالم المتحرك، بغض النظر عن التدقيق ومحاولة الناس وجه شبه، أو إدناء وتقريب المستعار له من المستعار منه.[1]

الجناس والطباق وتحدث عن الجناس والطباق مبرزا أخطاء الشاعرين وإساءتها في استخدام هذين اللونين، ومشيرا إلى إفراط أبي تمام وإسرافه في استخدامها... ويلوم قدامة في مخالفته لابن المعتز وتسميته الطباق باسم التكافؤ، والجناس التام باسم المطابق.

التعقيد اللفظي: وتحدث عن سوء نظم أبي تمام وتعقيد ألفاظه وما يجري في شعره من غريب، وأشار إلى أن قدامة قد أخطأ في فهم معنى المعاظلة؛ حيث أطلقها على فاحش الاستعارة، وإنها المراد بها سوء النظم وتداخل أجزاء الكلام وركوب بعضه بعضا، أي: التعقيد اللفظي المخل بالفصاحة.

حسن الابتداء: كما تحدث عن حسن الابتداءات، فنوه كثيرًا بابتداءات البحتري، وأزرى بكثير من ابتداءات أبي تمام.

الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني «ت ٣٩٢هـ»

مؤلف هذا الكتاب -كما أشرنا- هو علي بن عبد العزيز الجرجاني "ت ٣٩٢هـ"، وكان يتولى القضاء للدولة البويهية في إيران، وقد أراد

[1] انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠.

بهذا الكتاب أن يتوسط بين المتنبي وخصومه، وأن يحكم بينها بالقسطاس المستقيم، وقد بدأ بالحديث عن أخطاء الشعراء قدماء ومحدثين في ألفاظهم ومعانيهم ثم أشار إلى أن أبا تمام يتفاوت شعره بين السهولة والإغراب اللفظي، بينما يمتاز البحتري بالسهل الممتنع والسمح المنقاد...

ومضى يتحدث عن البديع ووجوهه وصوره، فذكر أنها كانت تأتي قليلة وبدون تعمد ولا تكلف في أشعار الجاهليين والإسلاميين، فلا أفضى الشعر إلى المحدثين من العباسيين أكثروا منها إكثارا... والذي يهمنا هو ما الكتاب من فنون البديع ومسائل البلاغة... وأهم نجده:

التشبيه والاستعارة: تحدث الجرجاني عن التشبيه وأغراضه وعن الاستعارة ومعناها، والفرق بينها وبين التشبيه البليغ، فنراه يذكر بيت المتنبي:

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها*وقوف شحيح ضاع في التُرب خاتمه

ثم يعلق عليه قائلاً: "إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة وأخرى بالحال والطريقة، فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه: إني أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه، لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة، وإنما يريد: لأقفن وقوفا زائدا على القدر المعتاد خارجًا عن حد الاعتدال كما أن وقوف الشحيح يزيد

على ما يعرف في أمثاله، وعلى ما جرت به العادة في أضرابه، وإنما هو كقول الشاعر:

رب ليل أمد من نفس العا ** شق طولا قطعته بانتحاب

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغا ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضي إلا عن أنفاس لا تحصى، كائنة ما كانت في امتدادها وطولها، وإنها مراد الشاعر أن الليل زائد في الطول على مقادير الليالي، كزيادة نفس على الأنفاس [1] وهذه ملاحظة دقيقة في تفهم مراد الشاعر وفقه الصورة التشبيهية، وما يكمن وراءها من دلالات وإيحاءات...

ويتحدث عن أغراض التشبيه فيقول: "للشعراء في التشبيه أغراض، فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونصوع اللون والتمام، وإذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها، واشتراك الخاص والعام في معرفتها وتعظيمها، وإذا قرنوه بالجلال والرفعة، أرادوا به أنوارها وارتفاع محلها، وإذا ذكروه في باب النفع والإرفاق، قصدوا به تأثيرها في النشوء والنماء والتحليل والتصفية، ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد وطريق متميز، فقد يكون المشبه بالشمس

[1] الوساطة، ص٤٧١

في العلو والنباهة والنفع والجلالة أسود، وقد يكون منير الفعال كمد اللون واضح الأخلاق كاسف المنظر[1]

تلك نظرة دقيقة في تحديد وجه الشبه، فقد يكون المشبه به واحدا ويختلف وجه الشبه باختلاف الغرض من التشبيه، وقد أفاد البلاغيون من هذه النظرة في بيان وجه الشبه وتحديد أغراض التشبيه ...

ويفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ فيقول: "وربا جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس:

والحب ظهر أنت راكبه * فإذا صرفت عنانه انصرفا**

ولست أدري هذا وما أشبهه استعارة، وإنها معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء... وإنها الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها... وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينها منافرة ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر... "[2]

فهو هنا يفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ويشير إلى خطأ بعضهم في الخلط بيتها ويجعل الاستعارة مبنية على النقل كما صنع الجاحظ

---

[1] الوساطة: ص ٤٧٤.

(٢) الوساطة: ٤١

وابن المعتز والرماني قبله، ثم نراه متأثرا بالآمدي يشير إلى ضرورة وجود الشبه والمناسبة والامتزاج وعدم التنافر بين المستعار له والمستعار منه...

وقد تأثر عبد القاهر بالقاضي وأفاد منه كثيرا من مباحثه في الاستعارة والتشبيه؛ إذ نراه يستمد منه، ويصرح باسمه كثيرا... انظر إلى قوله: "اعلم أن الوجه الذي يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة، ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا: زيد أسد وهند بدر، ولكن تقول هو تشبيه، فإذا قال قائل:

هو أسد لم تقل استعار له اسم الأسد، ولكن تقول: شبهه بالأسد"[1].

التجنيس: وينتقل القاضي إلى التجنيس فيقسمه أقساما ويطلق على كل قسم مصطلحا وقد رأيت ابن المعتز يذكر شواهد مختلفة لأقسام الجناس، ولكنه لم يسمها كما سماها القاضي، وكأن القاضي قد استمد من تلك الشواهد، وأطلق عليها هذه المصطلحات التي تناقلها البلاغيون بعده.

فمن هذه الأقسام المطلق، وقد سماه بعض البلاغيين باسم: جناس الاشتقاق كما في قول أبي تمام:

تطل الطول الدّمع في كل موقف ** وتمثل بالصبر الديار المواثل

ومنه المستوفي وهو الجناس الكامل الذي أطلق عليه قدامة في كتابه: «نقد الشعر» المطابق، كقول أبي تمام:

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٩٨.

ما مات من كرم الزمان فإنه* يحيا لدى يحيى بن عبد الله

ومنه الناقص، كقول الأخنس بن شهاب:

وحامي لواء قد قتلنا وحامل** لواء منعنا والسيوف شوارع

ومنه التجنيس المضاف كقول البحتري

أيا قمر التمام أعنت ظلما ** علي تطاول الليل التمام

وذلك أن معنى التام واحد في الموضعين، ولو انفرد لم يعد تجنيسا، ولكن أحدهما صار موصولاً بالقمر والآخر بالليل، فكانا كالمختلفين.

ومنه التصحيف كقول البحتري في المعتز بالله وبعض الخارجين عليه.

ولم يكن المغتر بالله إذا سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

فجانس بين "المغتر والمعتز" جناس تصحيف [1]

المطابقة: وتحدث القاضي عن المطابقة فأورد كثيرا من شواهدها وذكر أن لها شعبا خفية، وأشار إلى طباق السلب، كقول البحتري:

يقيض لي من حيث لا أعلم الهوى

ويسري إلى الشوق من حيث أعلم

وقد أشار إلى ذلك الباقلاني -كما مر في الحديث عنه- في كتابه: إعجاز القرآن ...

السرقات الشعرية: وتحدث عن السرقات الشعرية ففصل فيها القول وذكر أنها أنواع مختلفة، واضعا لكل نوع منها اسمًا، وقد اقتدى به البلاغيون فتناقلوا هذه التسميات، يقول القاضي في ذلك: "هذا باب لا

(١) انظر الوساطة ص ٤١، وما بعدها.

ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله، ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علما برتبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه والمبتذل الذي ليس أحد أولى به، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلسا سارقا والمشارك له محتذيا تابعا، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أخذ ونقل، والكلمة التي يصح أن يقال فيها هي لفلان دون فلان"(١)

وأخذ القاضي يعرض الأمثلة للأقسام التي ذكرها من الغصب والإغارة والاختلاس والإلمام والملاحظة، ومن طريف ما وقف عنده تبادل المعاني والأغراض، وهو يدخل في الاختلاس، كما في قول جرير متغزلاً:

بعثن الهوى ثم ارتمين قلوبنا * بأسهم أعداء وهن صديق**

فقد نقله أبو نواس إلى ذم الدنيا والزهد فيها فقال:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق**

---

(1) الوساطة ١٨٣.

ومن ذلك أيضا ما يجيء به الشعراء على وجه القلب والنقض مما يدخل في الإلمام والملاحظة، كقول أبي الشيص

أجـد الملامـة في هـواك لذيـذة ** حبـا لـذكرك فليلمنـي اللوم

فقد نقضه المتنبي بقوله:

أأحبه وأحـب فيـه ملامـة ** إن الملامـة فيـه مـن أعدائـه

إلى غير ذلك من الفنون البلاغية التي عرض لها القاضي، كصحة الأقسام وبراعة الاستهلال وحسن التخلص والخاتمة، والمبالغة والغلو.

يقول في الغلو: "أما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثيرا في الأوائل، والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية؛ وأدته الحال إلى الإحالة وإنها الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق، والباب واحد، ولكن له درج ومراتب.. [1]

كتاب الصناعتين للعسكري "ت ٣٩٥هـ

ومن كتب الدراسات النقدية التي قامت على أسس بلاغية، وإن كانت أكثر تخصصًا من سابقتها كتاب «الصناعتين - الكتابة والشعر» لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة. ولد في عسكر مكرم (من كور الأهواز) وإليها نسبته، وانتقل إلى بغداد والبصرة، وخلّف كثيرا من الكتب، منها:

[1] الوساطة ٤٢٠

جمهرة الأمثال، والصناعتين، وديوان المعاني، والمصون في الأدب، والأوائل، وغيرها مما يدل على إطلاع واسع، وذهن ناقد.

وله مؤلفات كثيرة زادت على العشرين مؤلفًا، ما زال معظمها مخطوطًا وأهم هذه المؤلفات كتاب الصناعتين، ويريد بالصناعتين صناعتي الكتابة والشعر، وفيه عرض للموضوعات البلاغية وللمحسنات البديعية ووجوهها وفنونها، وبسط القول في هذا بسطًا وافيًا، وأكد أن غرضه في كتابه أن يقصد مقاصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، بعيدًا عن سبيل المتكلمين.

فأبو هلال في كتاب الصناعتين يدرس البلاغة دراسة دقيقة هي مزيج من علمه الخاص بها وعلم من سبقوه إليها، مع الإكثار من الأمثلة والشواهد.

وليس هو أول من سمى الأدب صناعة، بل سبقه إلى ذلك بشر بن المعتمر، - في صحيفته -، وقدامة الذي ذكر أن الشعر صناعة وكل صناعة لها طرفان: غاية في الجودة، وغاية في الرداءة وبينها وسائط ويفتتح أبو هلال كتابه بمقدمة ينوه فيها بشأن البلاغة، وضرورة معرفتها والإلمام بمسائلها، ذاكرا أهميتها بين العلوم الأخرى، فهي ضرورية لفهم إعجاز القرآن الكريم، وللتمييز بين جيد الكلام ورديئه، والوقوف على ما ينبغي استخدامه من أساليب اللغة الرفيعة وألفاظها الجيدة.

ثم يخبر عن الغاية من تأليفه الكتاب فيقول:

"فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيها راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت إليه الحاجة ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهذار..."[1]

<u>منهجه في التأليف:</u>

ثم يذكر أنه لم يؤلفه على طريقة المتكلمين، وإنها ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب، وهو كذلك فقد مضى فيه على طريقة ابن المعتز يكثر من الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم

---

[1] الصناعتين ١٠، ١١.

والحديث الشريف وكلام الصحابة، والعرب، وأشعار المتقدمين، والمحدثين.

محتوي الكتاب:

وقد احتوى الكتاب على عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً: الباب الأول: للإبانة عن موضوع البلاغة ويتكون من ثلاثة فصول، وقد تحدث فيه عن البلاغة في أصل اللغة، وما فيها من أقوال السابقين في ذكر حدودها وشرح وجودها، وما يجري معها من تصرف لفظها، وضرب لذلك الأمثلة والشواهد.

الباب الثاني: في معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه ومحموده من مذمومه وقد تكون من فصل واحد.

الباب الثالث: في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ ويتكون من فصلين.

الباب الرابع: في الحديث عن حسن السبك وجودة الرصف ويتكون من فصل واحد.

الباب الخامس: في ذكر الإيجاز والإطناب ويتكون من فصلين، وقد جعل بينها المساواة، فالكلام عنده إيجاز أو إطناب أو مساواة.

الباب السادس: في السرقات ويتكون من فصلين تحدث فيها عن حسن الأخذ وقبحه وعن جودته ورداءته.

الباب السابع: في التشبيه ويتكون من فصلين.

الباب الثامن: في ذكر السجع والازدواج وهو فصلان.

الباب التاسع: في شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه ويتكون من خمسة وثلاثين فصلاً.

الباب العاشر: في ذكر مقاطع الكلام ومباديه والقول في الإساءة في ذلك والإحسان فيه، ويتكون من ثلاثة فصول.

<u>علماء تأثر بهم أبو هلال في كتاب الصناعتين:</u>

وقد تأثر أبو هلال في تناوله هذه الأبواب بمن سبقه من العلماء واستمد كثيرا من أقوالهم، تأثر بالجاحظ في حديثه عن حسن السبك وجودة النظم وتمييز جيد الكلام من ردينه، وتأثر بالرماني في حديثه عن التشبيه ونقل أقواله فيه وكذا بابن طباطبا، كما تأثر بالرماني في حديثه عن السجع والازدواج وأدخل فيها فواصل القرآن الكريم مخالفا له، وكذا في حديثه عن الإيجاز وتقسيمه إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، واقتدى بقدامة في القول بالمساواة وبابن المقفع في ذكر الإطناب، وكذا بالجاحظ، وتأثر بالآمدي والقاضي في حديثه عن السرقات الشعرية وحسن الأخذ وقبحه، وكان شديد التأثر بأستاذه وخاله "أن أحمد العسكري" وعندما ينقل عنه تراه يقول: "أخبرني" ونحو ذلك مما يدل على السماع والمشافهة وقد كانوا يقدمون السماع على النقل من الكتب .

هذا ونلاحظ أن الأبواب من الخامس إلى الثامن، وكذا الباب العاشر يمكن إدماجها في الباب التاسع الذي تحدث فيه عن فنون البديع، لأنه يتناول فيها فنونا بديعية، الإيجاز والإطناب والسرقات، والتشبيه والسجع والازدواج وحسن الابتداء وحسن التخلص، وكلها تدخل أي: يمكن تناولها في الباب التاسع الذي خصصه لفنون البديع ...

وعندما ننظر في فنون البديع التي ذكرها في الباب التاسع نجدها خمسة وثلاثين، يذكر أبو أنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون، فهو يلتقي معهم في تسعة وعشرين فنا نقلها عن سابقيه وعن خاله: أبي أحمد العسكري، وهذه الفنون هي: الاستعارة- التطبيق- التجنيس - المقابلة- صحة التقسيم - صحة التفسير - الإشارة- الإرداف والتوابع- الماثلة- الغلو- المبالغة- الكناية - والتعريض - العكس - التذييل الترصيع- الإيغال- التوشيح - رد الأعجاز على الصدور - التتميم والتكميل والالتفات- الاعتراض- الرجوع- تجاهل العارف - الاستطراد ويعرفه بقوله: "هو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينا يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سببا إليه"(وقد سماه ابن المعتز "الخروج"، ومما أنشد له أبو هلال قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة الذي حدّثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

جمع المؤتلف والمختلف ويعرفه بقوله: "هو أن يجمع في كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو مؤتلفة كقوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلت) [الأعراف: ١٣٣]، وقوله عز وجل: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاي ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) [النحل: ٩٠]

وساق شواهد كثيرة ترجع جميعها إلى ما سمي فيما بعد بمراعاة النظير [١]

والسلب والإيجاب –الاستثناء: وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم - المذهب الكلامي - التعطف وهو نوع من الجناس وقد عرفه بقوله: "أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف"[٢]

أما الفنون الستة التي ذكر أنه زادها على ما ذكره السابقون فهي: - التشطير: ويريد به أن يستغني كل مصراع عن صاحبه في معناه؛ إذ يعرفه بقوله: "وهو أن يتوازن المصراعان والجزءان وتتعادل أقسامها مع قيام كل واحد منها بنفسه واستغنائه عن صاحبه " فمثاله من النثر قول بعضهم: "من عتب على الزمان طالت معتبته، ومن رضي عن الزمان طابت معيشته" ومن الشعر قول الشاعر:

فأما الذي يحصيهم فمكثر*** وأما الذي يطريهم فمقلل

وقول زهير:

---

١ انظر الصناعتين: ٤١٧

٢الصناعتين ٤٢٨.

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ** ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

وليس هذا اللون من اختراع أبي هلال - كما ذكر – بل سبقه إليه ثعلب في كتابه: "قواعد الشعر" وسماه "بالمعدل" حيث قال: "أبلغ الشعر ما اعتدل شطراه وتكافأت حاشيتاه" كقول الشاعر:

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقة الرجل

والذي أضافه أبو هلال أنه غير تسميته من "المعدل" إلى "التشطير".

٢ - المجاورة: ويعرفها بقوله: "تردد لفظتين في البيت ووقوع كل واحدة منها بجنب الأخرى أو قريبا منها من غير أن تكون إحداهما لغوا لا يحتاج إليها".

كقول علقمة:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه *أنى توجه والمحروم محروم

فقوله: "الغنم يوم الغنم" مجاورة، وكذا: "المحروم محروم"، ومنه قولهم: "إنها يغفر العظيم العظيم" وقد سمي هذا اللون فيها بعد باسم الترديد، وأراه قريبا من الجناس التام، أو ما سماه أبو هلال باسم: "التعطف"، نقلاً عن خاله: أبي أحمد العسكري.

٣-الاستشهاد والاحتجاج: ويعرفه بقوله: "أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته".

كقول بشار:

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة*فان الخوافي قوة للقوادم

ويرجع هذا اللون إلى ما عرف عند الجاحظ وابن المعتز بالمذهب الكلامي.

٤ - المضاعفة: وهي أن يتضمن الكلام معنيين، معنى مصرح به، ومعنى كالمشار إليه.

ومثاله قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ** قالوا لأمهم بولي على النار

فقد دل بإطفاء نارهم القليلة على بخلهم.

ومنه قول المتنبي:

نهبت من الأعمار مالو حويته* لهنئت الدنيا بأنك خالد**

وبعض شواهد هذا الفن ترجع إلى الكناية كالبيت الأول، والبعض الآخر استشهد به المتأخرون لما عرف عندهم باسم الاستتباع كبيت المتنبي

٥-التطريز: وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فتكون فيها كالطراز في الثوب.

ومنه قول أحمد بن أبي طاهر:

إذا أبو قاسم جادت لنا يده* لم يحمد الأجودان: البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوار غرته * تضاءل الأنوران: الشمس والقمر

وإن مضى رأيه أو حد عزمته* تأخر الماضيان: السيف والقدر

من لم يكن حذرا من حد صولته* لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر

٦- التلطف: وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه والمعنى الهجين حتى تحسنه، فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح: "أنت حقود" فقال: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنها عندي لباقيان"، فقال يحيى: ما رأيت أحدا غيرك احتج للحقد حتى حسنه.

ثم يقول أبو هلال: وقد عرض لي بعد نظم هذه الأنواع نوع آخر لم يذكره أحد وسميته: المشتق وهو أن يشتق لفظ من لفظ أو معنى من لفظ، لتحسين شيء، أو تقبيحه، كما في قول أحد الشعراء في العالم اللغوي المشهور: "نفطويه":

لو أوحي النحو إلى نفطويه *** ما كان هذا النحو يقرأ عليه

أحرقه الله بنصف اسمه *** وصير الباقي صراخا عليه

تلك هي الألوان التي عرض لها العسكري في الصناعتين، وقد وضح لك مدى تأثره بمن سبقه، وأنه قد أكثر من الاستشهاد لهذه الفنون التي جمعها واستقصاها، كما عني بشرحها وتحليلها، فجاء كتابه كما صرح، على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب.

كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق "ت ٤٦٣ هـ"

مؤلف هذا الكتاب هو الحسن بن رشيق القيرواني، أحد بلغاء القيروان وشعرائها، ولد سنة ٣٩٠هـ، واختلفت الروايات في سنة وفاته، فقيل:

توفي سنة ٤٥٦هـ، وقيل: سنة ٤٦٤هـ، وأرجح الروايات أنه توفي سنة ٤٦٣هـ.

ولد بمدينة المسيلة بالمغرب العربي (في دولة الجزائر حاليًا) ونشأ بها وتعلم هناك، ثم ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ. وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد. وكان أبوه يعمل في المحمدية صائغا، فعلمه أبوه صنعته، وهناك تعلم ابن رشيق الأدب، وفيها قال الشعر، وأراد التزود منه وملاقاة أهله، فرحل إلى القيروان واشتهر بها ومدح صاحبها واتصل بخدمته، ولم يزل بها إلى أن فتح العرب القيروان، فانتقل إلى جزيرة صقلية. وابن رشيق أديب وناقد وشاعر. عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وكانت القيروان في ذلك الوقت عاصمة لدولة بني زيري الصنهاجيين، وتعج بالعلماء والأدباء، فدرس ابن رشيق النحو والشعر واللغة والعروض والأدب والنقد والبلاغة على عدد من نوابغ عصره، من أمثال أبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز وأبي محمد عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير وأبي إسحاق الحصري القيرواني.

مدح ابن رشيق حاكم القيروان المعز بن باديس بقصائد حازت إعجابه وكانت سببا في تقريبه له، ثم اتصل برئيس ديوان الإنشاء بالقيروان، أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ومدحه. ألف له كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه. وقد ولاه علي بن أبي الرجال شؤون

الكتابة المتصلة بالجيش. وبقي ابن رشيق في القيروان إلى أن زحفت عليها بعض القبائل العربية القادمة من المشرق فغادرها إلى مدينة المهدية، حيث أقام فترة في كنف أميرها تميم بن المعز، ولكنه ما لبث أن ترك المهدية إلى جزيرة صقلية، إلى أن وافته منيته.

آثاره ومؤلفاته:

ألف ابن رشيق كتبًا كثيرة ضاع بعضها ووصل إلينا بعضها، منها: كتاب العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه، وكتاب الأنموذج، والرسائل الفائقة والنظم الجيد.

وكتاب العمدة: في محاسن الشعر ونقده وآدابه أشهرها ويقع في جزءين، ويحتوي على خلاصة آراء النقاد الذين سبقوه في النقد الأدبي، كما يحتوي على موضوعات أدبية مهمة. وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات.

ومن كتبه المشهورة أيضًا: كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، وقد طبع أكثر من مرة، وله ديوان شعر جمعه الدكتور عبد الرحمن ياغي. ومن بين كتبه التي لم تصل إلينا: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، والشذوذ في اللغة

الغاية من تأليف الكتاب:

ويحدثنا ابن رشيق عن سبب تأليفه لهذا الكتاب، والغاية منه فيقول: " قد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن

تقبل شهادته، وتمتثل إرادته، ووجدت الناس مختلفين فيه، متخلفين عن كثير منه، يقدمون ويؤخرون، ويقلون ويكثرون، قد بوبوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتاب، ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه، إن شاء الله تعالى [1].

ويقع الكتاب في جزءين يتضمنان ستة ومائة باب تناولت في مقدماتها محاسن الشعر من: بيان فضله، والرد على من يكرهه وشعر الخلفاء والقضاة والفقهاء، ومن رفعه الشعر ومن وضعه، ومن قضى له الشعر ومن قضى عليه، وفأل الشعر وطيرته ومنافعه ومضاره، والتكسب بالشعر والأنفة منه.

وبعد هذه المقدمات تحدث عن حد الشعر وعناصره مفيدا في ذلك مما كتبه قدامة والسابقون، ثم فتح فصلاً للحديث عن اللفظ والمعنى، فذكر أنها متلازمان؛ إذ اللفظ جسم روحه المعنى، فها يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر، فإذا وصف اللفظ بالغرابة أو بالابتذال، كان ذلك وصفا للمعنى الجاثم وراءه، وكذلك الشأن في المعنى إن وصف بالوضوح أو الغموض، كان ذلك وصفا للفظ الذي يعرضه ويجلوه، فليس اللفظ

---

(1) العمدة ج ١ ص ١٦.

والمعنى شيئين منفصلين كالكوب وما يكون فيه من شراب، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته.

وهذه النظرة تختلف عن نظرة ابن قتيبة والتي تبعه فيها ابن طباطبا؛ حيث قسا الشعر إلى ما حسن لفظه ومعناه، وما ساء لفظه ومعناه، وما حسن لفظه دون معناه، وما حسن معناه دون لفظه.

ثم يذكر القيرواني أن للشعراء ألفاظا معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها.

ولعله يقصد بذلك ما أشار إليه الجاحظ من أن لكل أديب شاعرا كان أو ناثرا معجمه اللغوي الخاص الذي يردده في كلامه ويتميز به أسلوبه.

إلى غير ذلك مما تناوله الكتاب من حديث عن أوزان الشعر وقوافيه وأغراضه، وهي المطبوع من الشعر والمصنوع فيه، وعن البديهة والارتجال. والذي يعنينا هو حديثه عن البديع وفنونه، وأول ما نلاحظه أن القيرواني قد فصل بعض فنون البديع، وتحدث عنها في أبواب مستقلة، كما فعل أبو هلال، فتراه يفرد بابا للحديث عن المبادئ والمخارج والنهايات، وبابا آخر للحديث عن الإيجاز.

كما تلاحظ أنه أطلق كلمة: "الحلى" على ألوان البديع؛ إذ يقول في باب الاستعارة: "الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع، وليس

في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"[1].

ويقول في أثناء حديثه عن المثل السائر: "وهذه الأشياء في الشعر إنها هي نبذ تستحسن، ونكت تستظرف مع القلة وفي الندرة فأما إذا كثرت فهي دالة على الكلفة... ولا ينبغي للشعر أن يكون أيضا خاليا مغسولاً من هذه الحلي فارغا"[2]، تراه هنا يطلق كلمة: "حلي" على فنون البديع، كما تراه ينبه إلى أن الإكثار من تلك الفنون يدل على التكلف الذي لا يرغب فيه أحد، فهي إنها تستحسن مع القلة وفي الندرة، وعندما تأتي عفوا بلا تكلف.

وليس القيرواني أول من أطلق لفظ "الحلي" على فنون البديع، بل سبقه إلى ذلك القاضي صاحب الوساطة؛ حيث يقول: "وقد تمنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعا، ولكنه أحد أبواب الصنعة ومعدود في حلي الشعر [3]

ومن قبلها أطلق ابن المعتز على بعض هذه الفنون: "محاسن الكلام" ولعل هذا ما أغرى المتأخرين من البلاغيين أن يجعلوا فنون البديع محسنات تأتي بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة، ولكن هؤلاء الأعلام: القاضي والقيرواني

---

[1] (١) العمدة ١/ ٢٨٦.
[2] العمدة: ١/ ٢٨٥.
[3] الصناعتين ٤٣٨.

وابن المعتز، لم يقصدوا إلى ما فهمه المتأخرون، بل الحلية عندهم أمر ذاتي، وليست ترقا يمكن الاستغناء عنه، فهي حلية يقتضيها المقام، ويتم الغرض من الأسلوب إن وجدت، وينعدم إن لم توجد [1]

وابن رشيق لم يقف أمام الفنون البديعية التي ورثها عن سابقيه مكتوف اليدين جامدا، بل فكر ووضح وغير وبدل وضم وفرق وهذب ونقح، تجده قد ضم الشبيه إلى شبيهه، كعده الترصيع في التقسيم، وعده الكناية واللغز وما شاكلها من أقسام الإشارة وفرق بين الألوان المتقاربة، كتفريقه بين الاستطراد والالتفاف، والتتميم والإيغال، وقد امتاز تناوله لذلك بحسن اختيار الشواهد، وإيضاحها وتحليلها تحليلاً دقيقا... وإليك أهم الألوان البديعية التي حواها العمدة.

عقد ابن رشيق بابا للتفرقة بين المخترع والبديع، فذكر أن المخترع من الشعر هو ما لم يسبق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره، أو ما يقرب منه، كقول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها * سمو حباب الماء حالا على حال

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، فلم ينازعه فيه أحد وله اختراعات كثيرة، والفرق بين الاختراع والإبداع، وإن كان معناهما في العربية واحدا، أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بها لم يكن منها قط، والإبداع: إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع: وإن كثر

---

[1] الصناعتين ٤٣٨

وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد وحاز قصب السبق.

ثم يذكر أن البديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة، وأن عبد الله بن المعتز هو أول من جمع البديع وألف فيه كتابا، ولعله يقصد بالتأليف: التأليف على طريقة منهجية واضحة، وإلا فهناك كتب عديدة قبل كتاب البديع -كما رأيت- تناولت فنون البديع... وبعد ذلك يأخذ في بيان فنون البديع؛ حيث يبدؤها بالمجاز فينبه على كثرته في كلام العرب، وينقل كلام ابن قتيبة في الرد على من ذهب إلى أن المجاز كذب، ثم يؤكد أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ويحدد مفهومه عند البلاغيين: وهو أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، وينشد من أمثلته قول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم** رعيناه وإن كانوا غضابا

وقوله عز وجل " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا "، وقولهم: عين ساهرة، وبهذا يتضح لك أن القيرواني لم يفرق بين أنواع المجاز فهو يطلقه على المجاز المرسل والمجاز العقلي، ومجاز الحذف والاستعارة كما يدخل فيه بعض أمثلة التشبيه والكناية.

ويعقد فصلاً للاستعارة، فيبين أنها أفضل أنواع المجاز وأول أبواب البديع، وليس من حلي الشعر أعجب منها إذا وقعت موقعها، ويعرض

شواهد عديدة لصور من الاستعارة التصريحية والمكنية دون أن يفرق بينها. من ذلك قول لبيد:

وغداة ريح قذ كففت وقرة*إذ أصبحت بيد الشمال زمامها**

وقول ذي الرمة:

أقامت به حتى ذوي العود والتوى* وساق الثريا في ملاءته الفجر

ثم ذكر أن جلة العلماء يستحسنون الاستعارة القريبة ويستهجنون الاستعارة البعيدة، واختار هو من الاستعارات أوساطها ألا تكون بعيدة جدا ولا قريبة جدا، ثم يسوق أمثلة للاستعارة الحسنة والأخرى القبيحة، وهكذا يستمر ابن رشيق في عرض فنون البديع؛ فيتحدث عن التمثيل ويجعله من ضروب الاستعارة، وعن المثل السائر فيشير إلى كثرته في كلام العرب شعرا ونثرا، وعن التشبيه، فيعرفه ويبين أنه هو والاستعارة يخرجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان البعيد، ويعرض لما قاله الرماني وقدامة وغيرهما، وقد أفاض في عرض الشواهد والأمثلة وتحليلها، ويشير إلى طائفة من التشبيهات البعيدة فيسميها بالتشبيهات العقم، ويتحدث عن الإشارة فيدخل فيها الإيماء واللغز والرمز والتعريض والكتابة والتلويح واللحن، وعن التجنيس فيذكر أقسامه عند القاضي الجرجاني، مضيفا إليها أقساما جديدة وعن المطابقة والمقابلة والتقسيم والالتفات والاستطراد والاستثناء والمبالغة والغلو، إلى غير ذلك مما عرضه من فنون جمعها من كتب

السابقين، كما كانت له إضافات أهمها: الاطراد: وهو أن تطرد الأسماء من غير كلفة ولا حشو فارغ، فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر كقول الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد* وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

ونفي الشيء بإيجابه كقول زهير

بأرض خلاء لا يد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر [1]

فأثبت لها في اللفظ وصيدا، وإنما أراد: ليس لها وصيد فيسد علي... ومثله قولهم: "سرت على طريق لا يهتدى بمناره" يريدون: لا منار ولا اهتداء. والاتساع: وهو أن يكون في البيت من الامتداد في معناه ما يجعله يؤول تأويلات مختلفة، فكلما تأمل فيه ناقد أو شارح استنبط منه معنى جديدا.

والتتبع: وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه، ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة، وقد ساق له أمثلة ترجع جميعها إلى الكناية.

والاشتراك والتغاير: وهما ضربان من ضروب السرقات المستحسنة، وعلى هذا النحو درس ابن رشيق الصور البديعية في كتابه العمدة، ولا ترجع أهمية الكتاب إلى ما أضافه من فنون بديعية فحسب، بل إلى أن مؤلفه قد استوفى قراءة أكثر ما سبق من مصنفات، ونص في مواضع كثيرة على المصنفات التي استمد منها، وقارن بين الآراء المختلفة،

---

١ الوصيد: الفناء. قال تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) [الكهف:١٨] -٣

وأشار إلى الاختلاف في ألقاب بعض المصطلحات، وأكثر من عرض الشواهد وتحليلها وإيضاحها.

كتاب "سر الفصاحة" لابن سنان"ت ٤٦٦ هـ"

المؤلف:

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، من بني خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب، وكان أبوه من أشرافها، وقد أخذ العلم والأدب عن علماء عصره، ثم اتَّصل بأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري، فأخذ عنه العلم والأدب، وتولَّى بعض أعمال الدولة، حتى ثار على ولاته، ومات مسمومًا سنة ٤٦٦ هـ، وكتابه "سر الفصاحة" من أنفس كتب البلاغة، سار فيه بالبلاغة والنقد سيرًا مزدوجًا فيه التعريف والتحديد، وإلى جانبه النص والمثال، وإلى جانبهما الرأي في الإصابة أو سوء الاستعمال، مما يدل على تمرُّسه بفن الأدب، وتمتُّعه بالذوق المستنير، وقد طبع في مصر طبعتين جيدتين.

وكلام الخفاجي على اللفظة المفردة من أمتع الدراسات النقدية، وهو أصل لما كتب البلاغيون في فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام في مقدمات كتب البلاغة، بل إن ابن الأثير نفسه قد درس الكلمة المفردة وصفاتها في هذا الكتاب، وأفاد كما أفاد غيره من تلك الدراسة المنظَّمة التي مهد سبيلها الخفاجي.

كان معاصرًا لابن رشيق القيرواني، وعلى الرغم من تلك المعاصرة فإنك تجد تباينًا بينها في عرض المسائل وطريقة الدراسة، ولم يشر أحدهما إلى الآخر في مؤلفه، وربما رجع ذلك إلى بعد الشقة بينها، فهذا في المشرق وذلك في المغرب، وكان ابن سنان شاعرًا ومتأدبًا تتلمذ على أبي العلاء المعري، وكثيرًا ما كان ينقل من شعره ويدعوه شيخه، كما تتلمذ على غيره من العلماء والشعراء.

وقد استعان في كتابه "سر الفصاحة" بمؤلفات كثيرة أبرزها نقد الشعر لقدامة، والموازنة للآمدي، والوساطة للجرجاني والنكت للرماني، والبيان والتبيين للجاحظ والبديع لابن المعتز، وغير ذلك، وكثيرا ما يصرح بأسماء هذه المؤلفات عندما يأخذ منها؛ وكان معتدا بنفسه واسع الاطلاع، امتاز بحرية الرأي والمناقشة والبعد عن التقليد... وقد ولي ابن سنان الخفاجي قلعة "عزاز" من أعمال حلب وتوفي بها سنة ٤٦٦هـ، وترك ديوان شعر، وهذا الكتاب "سر الفصاحة" الذي نحن بصدد الحديث عنه.

ما الغاية من تأليف الكتاب؟

قصد ابن سنان من تأليفه هذا الكتاب إلى توضيح حقيقة الفصاحة والكشف عن سرها، ولذا يقول في مقدمته: "أما بعد فإني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفا من شأنها، وجملة من بيانها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته

للمتأمل، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال ولا مع الإسهاب إلى الإملال [١]

فهو يرمي إلى تجلية الفصاحة والكشف عن أسرارها، ومن هنا تدرك مدى الصلة بينه وبين المعتزلة، فهو أولاً يتجه إلى تفسير الفصاحة وما يطوى فيها من فنون بديعية، وقد مر بك أن أبا هاشم الجبائي وأضرابه من المعتزلة، يردون إلى الفصاحة وجوه التفاضل في القول، ويرجعون إليها المزية، وهو ثانيا ممن يقولون بالصرفة، وقد صرح بذلك في أكثر من موضع، انظر إلى قوله: "وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك"[٢] وقوله: "الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف، وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره "[٣]

وقد مضى يتحدث عن الفصاحة، فذكر نبذا من أحكام الأصوات ومخارج الحروف وتأليفها، وكيف نشأت اللغة، أتوقيف هي أم تواضع؟ وبين أن في كلام العرب مهملاً ومستعملاً، وقد أفاض في كل ذلك مما جعله هدفا لنقد النقاد كابن الأثير وغيره.

---

[١] سر الفصاحة: ١٣
[٢] سر الفصاحة ٩٣
[٣] سر الفصاحة ٢١٤

ثم تحدث بعد ذلك عن فصاحة الكلمة المفردة، فبدأ ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة جاعلاً الفصاحة خاصة بالألفاظ والبلاغة عامة في الألفاظ والمعاني، فكل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا، وقد شاع ذلك عند المتأخرين، ويعرف البلاغة تعريفات متعددة، استمدها من أقوال السابقين وبخاصة من البيان والتبيين للجاحظ... ثم يرجع فصاحة الكلمة إلى ثمانية أمور:

١- أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج حتى لا تثقل على اللسان.

٢- أن تحسن في السمع ويكون لها مزية على غيرها.

٣- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية.

٤- أن تكون غير ساقطة عامية.

٥- أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح في التصريف والاستعمال.

٦- ألا تكون قد هجر معناها اللغوي القديم، وأصبحت تدل على شيء آخر يكره ذكره ككلمة "الدلو" في قول أبي تمام:

متفجـــــــر نادمته فكأنني ** للدلو أو للمـــــــرزمين نـــديم [١]

٧- أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف، ككلمة "مغناطيسهن" في قول ابن نباتة:

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم * ألا إن مغناطيسهن الذوائب

---

١ فالدلو في البيت المراد به أحد الأبراج ولا يختار لموافقته اسم الدلو المعروف... والمرزمان: نجمان من نجوم المطر

٨-أن تكون مصغرة في موض عن شيء لطيف، أو خفي، أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك.

وهذه الشروط قد استقاها من كلام السابقين وبخاصة الجاحظ الذي تحدث عن التنافر ورجعه إلى شدة قرب المخارج أو شدة بعضها وشبهه بمشي المقيد والطفر، وقد أفاد متأخرو البلاغيين من هذه الأمور ووضعوها شروطا ينبغي توفرها حتى تكون الكلمة فصيحة... وينتقل الخفاجي من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام، فيذكر أنه لابد لفصاحته من فصاحة مفرداته، ثم يناقش الرماني في تقسيمه الكلام إلى متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا، فيذكر أن هذا فاسد وأن الصواب جعل الكلام قسمين اثنين: متنافر ومتلائم، ويكرر هنا قوله بالصرفة فيذكر أن في كلام العرب متلائمًا كالقرآن وأن الإعجاز الحقيقي يرجع إلى صرف الله عز وجل لهم عن معارضته، ثم يذكر لفصاحة الكلام بالإضافة لتوفر فصاحة مفرداته الأمور الآتية:

١-أن يتجنب في نظمه تكرار الكلمات ذات الحروف المتقاربة.

كما في قول المتنبي.

ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه

ولا ضعف ضعف الضعف، بل مثله ألف

٢-أن يكون التأليف جاريا على قواعد النحو، لأنه لا يرتضي اختيار الكلام العربي والشهادة بحسنه، وهو يخالف ما نطقت به العرب وتواضعت عليه

٣-ألا يتكرر التصغير والنداء والعطف والتوكيد ونحو ذلك من الظواهر الأسلوبية، لأن الإسهاب في إيرادها معدود في جملة التكرار المعيب، فينبغي التوسط فيها، فإن لكل شيء حدا ومقدارًا لا يُحسن تجاوزه ولا يُحمد تعديه.

٤-ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير يؤدي إلى اللبس وفساد المعنى، ولا يخفى عليك مدى إفادة متأخري البلاغيين من حديث الخفاجي في وضع الشروط التي ينبغي توافرها لفصاحة الكلام.

ويمضي ابن سنان في الحديث عن تأليف الكلام أو نظمه فيتحدث عما يختص بالتأليف من الأصول والمقومات، وعن المناسبة بين الألفاظ إما من طريقة الصنعة وإما عن طريق المعنى ثم يتحدث عن المعاني المفردة، وينتقل منها إلى آراء النقاد في الشعر وفي القدماء والمحدثين، ويعرض في أثناء ذلك لمسائل بلاغية أهمها ما يلي:

١-حسن الاستعارة: فصل القول في الاستعارة ونقل عن الرماني وناقش الآمدي وصاحب الوساطة والصولي في تحليلاتهم لكثير من الاستعارات، وبين أن الحقيقة أصل وأن الاستعارة فرع عنها، وفرق بين الاستعارة والتشبيه، وتحدث عن قرب الاستعارة وبعدها، وعن

أسباب البعد، وقد ساق أمثلة وشواهد كثيرة تكشف عن وجوه الحسن في الاستعارة، ثم ساق أمثلة أخرى تكشف عن رديئها المسترذل متأثرا في ذلك بما صنعه ابن المعتز وقدامة والعسكري وابن رشيق وغيرهم

٢-الحشو: ذكر أن من وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشوا، ثم حدد مفهومه، ونوعه إلى مفيد وغير مفيد، وأدخل في المفيد: الإيغال والتتميم والاعتراض، ووشح ذلك بالأمثلة والشواهد، وقد استفاد البلاغيون المتأخرون من تنويعه الحشو إلى مفيد وغير مفيد، فجعلوا الحشو قسمين: حشوا يفسد المعنى وحشوا لا يفسد.

٣-المعاظلة: يذكر أن من الوضع الصحيح للألفاظ ألا يكون بها معاظلة وهي تراكب الكلام وتداخل بعضه في بعض، ثم يشير إلى خطأ قدامة في فهم معناها، وتبيين الآمدي لخطئه وفي أثناء ذلك يعرض لما عرف باسم التوشيح أو التسهيم [١]

٤-حسن الكناية: جعلها من وضع الألفاظ موضعها فقال: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة"[٢]، وقد ساق لها الأمثلة والشواهد العديدة.

---

١) هو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي ويسمى أيضا بالإرصاد والتبيين والتوأم.

٢ سر الفصاحة ١٥٦.

وهكذا يستمر الخفاجي في عرض مسائل البلاغة فيتحدث عن السجع والازدواج والترصيع والجناس والطباق والإيجاز وحذف فضول الكلام والتمثيل وصحة التقسيم وحسن التشبيه، وصحة المقابلة وحسن التخلص والمبالغة في المعنى والغلو وصحة التفسير، والاستدلال بالتعليل ورد الأعجاز على الصدور وما عرف باسم اللف والنشر، وقد سماه: "الترتيب" وعن اللغز في الكلام والإرداف والتتبيع، وفي كل ذلك يشرح ويحلل ويناقش السابقين ويعرض إلى خلافاتهم في بعض المصطلحات ويرجح ما يراه أولى بالترجيح، ويعرض الكثير من الشواهد والأمثلة.

وبهذا نرى أن كتاب "سر الفصاحة" إذا ما نحينا عنه رأي الخفاجي من القول بالصرفة، وما يتبعه من القول بأن الآيات القرآنية بعضها أفصح من بعض، إذا ما نحي عنه هذا وأمثاله، فإنه يعد من المراجع البلاغية المهمة مناقشة وتحليلاً وجمعا لأقوال السابقين وعرضا للشواهد والأمثلة وإضافة لما ينبغي إضافته من شرح، وإيضاح، وتبيين، وترجيح.

عبد القاهر الجرجاني ٤٧١ هـ"

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ولد بجرجان إحدى المدن المشهورة بين خراسان وطبرستان، فانتسب إليها وظل

بها لم يفارقها حتى توفي بها سنة ٤٧١هـ، وكان فقيها شافعيا ومتكلما أشعريا، وقد درس النحو على أبي الحسن محمد بن الحسن الفارسي، ابن أخت أبي علي الفارسي، وكان يعد إمام النحاة بعده، وله مؤلفات عديدة منها: العوامل المائة في النحو، والشافية في إعجاز القرآن، ولكنه اشتهر بكتابيه: "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" فقد استطاع عبد القاهر أن يفيد من المؤلفات السابقة وأن يبرز في هذين الكتابين مسائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد والأمثلة.

وأول ما نلاحظه أن كتاب "أسرار البلاغة" قد تضمن مسائل البيان وبعض فنون البديع وأن كتاب "دلائل الإعجاز" قد تناول مسائل المعاني، وهذا لا يعني أن عبد القاهر قد قسم علوم البلاغة، إن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة: معان وبيان وبديع، لم يتم إلا في عهد السكاكي، أما عبد القاهر وسابقوه، فقد كانت البلاغة عندهم علما واحدا يتناول مسائل البديع وفنونه.

وارجع إلى الكتابين فستجد كلمة البيان ترد مقرونة بكلمة الفصاحة والبلاغة، والبديع، وستجده يورد الاستعارة والتشبيه والمجاز في "دلائل الإعجاز" مبرزا أثرهما في النظم والصياغة وبناء الجمل وأغلب الظن أن عبد القاهر قد ألف كتابه "دلائل الإعجاز" بعد تأليفه

"أسرار البلاغة"؛ إذ كثيرا ما يعد في الأسرار باستيفاء موضوعات، فإذا فتشت عنها لتحقق ذلك الوعد وجدتها في الدلائل [1]

فتعالوا ننظر في هذين الكتابين لنرى مدى إفادة عبد القاهر من سابقيه، وكيف أبرز مسائل البلاغة بالشرح والتحليل والإكثار من الشواهد والحث على تأملها وتذوقها.

دلائل الإعجاز

بدأ عبد القاهر كتابه "دلائل الإعجاز" بالحديث عن نظرية النظم مفيدا من كتابات الجاحظ، ومن حديث القاضي عبد الجبار، فذكر أن الناظم يبدأ فيرتب المعاني في نفسه ويبذل جهدا في ترتيبها ثم يعمد إلى الألفاظ التي يعبر بها عن تلك المعاني، فيرتبها وفق ترتيب المعاني في نفسه.

ملخص نظرية النظم عند عبدالقاهر:

يقول عبد القاهر: "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق وقد عقد قبل ذلك فصولاً تحدث فيها عن الشعر وروايته وحفظه، ورد على من زهد فيه، وتحدث عن النحو وعن مدى الحاجة إليه، ثم تحدث عن

---

[1] (1) انظر الصبغ البديعي: ٢٣٥.

الفصاحة والبلاغة، فبين أن السبيل إلى معرفتها هو معرفة النظم وأسراره، وإذا كان الأمر كذلك؛ فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخبارا أو أمرا أو نهيا أو استخبارا أو تعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظه على لفظه[1]؛ أي أن على الناظم بعد أن يرتب المعاني في نفسه أن ينتقي ويتخير الكلمات التي يعبر بها عنها، وأن يحسن ضم بعضها إلى بعض على وفق المعاني القائمة في نفسه.

ويستمر عبد القاهر في إبراز مزايا النظم، وتقرير أنه مرجع الفصاحة فيقول: "وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها [2]

ثم يتبع ذلك بسيل من الشواهد فيبدأ بقوله عز وجل: (وقيل ياأرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) [هود: ٤٤]، ويبرز عبد

---

[1] (١) دلائل الإعجاز: ٨٧

[2] (٢) دلائل الإعجاز:٨٨

القاهر ما في الآية الكريمة من إعجاز مبينا أن مرده إلى النظم فيقول: "هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: «وقيل يا أرض ابلعى ماءك .... الآية. فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها، إن شككت فتأمل، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي مكانها من الآية؟

قل «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذا فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم في أن كان النداء "بيا" دون "أي" نحو: يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فعل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آخر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: «وقضى الأمر ثم ذكر ما فائدة هذه الأمور وهو: واستوت على الجودي »، ثم إضمار السفينة

قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة: (قيل) في الخاتمة (بقيل) في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع

وحروف تتوالى في النطق أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟ (١)

ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع" في بيت الحماسة:

تلفتُ نحو الحي حتى وجدتني * وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحتري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى * وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها – أي كلمة: «الأخدع» - في بيت أبي تمام:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ** أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما تجد لها هناك من الخفة والإيناس. وانظر إلى كلمة "شيء" في قول عمر بن أبي ربيعة:

---

[1] دلائل الإعجاز :٩٠

ومن مالئ عينيه من شيء غيره*إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقول أبي حية النميري:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة ** تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول.

ثم انظر إليها في بيت المتنبي.

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه* لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تثقل وتكره بمقدار ما حسنت هناك وخفت [1]

ويستمر عبد القاهر في عرض الشواهد مبرزا أن المعول عليه في رجوع المزية هو التلاؤم اللفظي واستقرار الكليات حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

ويعرض بعد ذلك للمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل، فيذكر أن لها فضلاً ومزية ويكشف عن ذلك ويجليه أتم تجلية، ثم يبين أن المزية والحسن والفصاحة والرونق لا يرجع إلى ذات هذه الفنون، بل إلى نظمها الذي سيقت فيه: "ترى المزية أبدا في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى نفسه"، فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفا، وأن تفخمها في نفوس السامعين وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنها يعنون

[1] ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ٩٠-٩٢

إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه، هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبدا، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة، والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنا نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب[١]

وإذا كانت المزية لا ترجع إلى الألفاظ المجردة، ولا إلى المعاني اللغوية للكلمات، فإلى أي شيء ترجع؟ إنها ترجع إلى النظم الذي يعرفه عبد القاهر بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها [٢]

ثم يشرح مراده بعلم النحو وما يقتضيه فيقول: "وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، وفي الحال إلى الوجود التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا وجاءني يسرع

---

١ (١) دلائل الإعجاز: ١١٠.
(٢) دلائل الإعجاز: ١١٧

وجاءني وهو يسرع أو وهو مسرع وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو: أن يجيء "بما" في نفي الحال، "وبلا" إذا أراد نفي الاستقبال، "وبإن" فيما يترجح بين أن يكون أو ألا يكون "وبإذا" فيما علم أنه كائن، وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من ثم، وموضع أو من موضع أم وموضع لكن من موضع بل، ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك في مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له[1]

فعبد القاهر يريد بعلم النحو وقوانينه: العلاقات بين المفردات والجمل وما يكمن وراء التعبيرات من دقائق وأسرار، ومجيء الأبنية والصيغ على وفق ترتيب المعاني في النفس ثم أخذ يوضح ذلك بالشواهد والأمثلة، فبدأ بالنظم الفاسد من نحو قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا * أبو أمه حي أبوه يقاربه

وقول المتنبي:

---

[1] (1) دلائل الإعجاز: ١١٨.

ولذا اسم أغطية العيون جفونها * من أنها عمل السيوف عوامل

وقول أبي تمام:

ثانيه في كبد السماء ولم يكن * كاثنين ثان إذ هما في الغار

وذكر أن فساده راجع إلى سوء نظمه وتأليفه، وما صنع من تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار لا يسوغ ولا يصح على أصول علم النحو، فأدى إلى التعقيد واللبس، وأتبع ذلك بشواهد من النظم الجيد من نحو قول البحتري:

بلونا ضرائب من قد نرى فما إن رأيت لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثات عزما وشيكا ورأيا صليبا

تنقل في خلقى سؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثنيا

فيذكر أن سبب حسنه وبهائه ورونقه وجماله، ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخي على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه...

ويتساءل عبد القاهر: أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله: "هو المرء أبدت له الحادثات"، ثم قوله: "تنقل في خلقي سؤدد"، بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثم قوله: "فكالسيف" وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى لا محالة هو كالسيف، ثم تكريره الكاف في

قوله: "وكالبحر" ثم قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: "صارخا" هناك و"مستنيبا" ههنا.وقول إبراهيم بن العباس:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب * وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز داري بنجوة *ولكن مقادير جرت وأمور

وإني لأرجو بعد هذا محمدا * لأفضل ما يرجى أخ ووزير

فإنك لو تفقدت سبب الرونق والطلاوة والحسن والحلاوة فستجده أنها كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو "إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون" وأن لم يقل: "فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر". ثم قال: "تكون" ولم يقل "كان" ثم أن نكر الدهر ولم يقل "فلو إذ نبا الدهر" ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد. ثم أن قال: "وأنكر صاحب"، ولم يقل: " وأنكرت صاحبا". ويستمر عبد القاهر في عرض الشواهد وإبراز ما فيها من حسن وجمال مردهما إلى النظم، وفي أثناء ذلك يتحدث عرضا عن فنون بلاغية كالمزاوجة في قول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى

أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر

وقوله:

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها * تذكرت القربى ففاضت دموعها

وكالتشبيه في قول كثير:

وإني وتهيامي بعزة بعدما * تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما * تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسًا * لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقول الفرزدق:

والشيب ينهض في الشباب كأنه * ليل يصيح بجانبيه نهار

وقول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول زياد الأعجم:

وإنا وما تلقي لنا إن هجوتنا * كالبحر مهما تلق في البحر يغرق

وكالتقسيم يصاحبه الجمع في قول حسان:

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة * إن الخلائق فاعلم شرها البدع

وكالاستعارة في قوله تعالى: " واشتعل الرأس شيبا " [1]، وفي قول ابن المعتز:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا * أنصاره بوجوه كالدنانير

---

[1] دلائل الإعجاز: ٨٨.

إلى غير ذلك من شواهد، فقد حللها وأبرز ما فيها من حسن وجمال منبها إلى أن ذلك الحسن قد تم عن طريق النظم،

انظر إلى قوله معلقا على بيت ابن المعتز السابق ذكره:

"فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنها تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وإن شككت فاعمد إلى الجار والمجرور والظرف، فأزل كلاً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ثم انظر كيف يكون وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيتك التي كانت، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها "[1]

ومما ينبغي التنبيه له أن عبد القاهر قد جعل لمعاني التشبيه والاستعارة والتمثيل والكناية وغيرها من فنون البلاغة حسنا ومزية ، وأن حسنها ومزيتها وجمالها ورونقها إنما يتم بالنظم ، كما أنه لم يهمل التنبيه إلى ما للألفاظ وحذاقة حروفها وسلامتها مما يثقل على اللسان من حسن يوجب لها الفضيلة والمزية ، ولكن الذي أنكره وكرر إنكاره في مواضع كثيرة من كتابه ، أن يكون لهذه المعاني وما يثبت لها من حسن أو لتلك الألفاظ وما وجب لها من مزية، أساس في تحقيق الإعجاز ومهما يكن من أمر فإن الإعجاز يتأكد بمثل هذه

[1] دلائل الإعجاز: ٨٨

الأمور، ولا يكون بها وحدها... ويتضح ذلك من أقواله: "وجملة الأمر أن ههنا كلامًا حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ وثالثها قري الحسن من الجهتين ووجبت له المزية بكلا الأمرين والإشكال في هذا الثالث وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه ، و تراك قد عفت فيه على النظم فتركته ، وطمحت ببصرك إلى اللفظ ، وقدرت في حسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته...

اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، وقسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، فالقسم الأول: الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر فيها من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية....واعلم أنا لا نأبى أن تكون حذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيها يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنا الذي ننكره وننفي رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات، ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة في شيء هو إذا انفرد لم يجب به فضل ألبتة، ولم يدخل في اعتداد بحال،

وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه لا يكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان اعتداد حتى يكون قد ألف منها كلام ثم كان ذلك الكلام صحيحا في نظمه والغرض الذي أريد به، ولأنه لو عمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعي فيها ويؤلف منها كلاما، لم تر عاقلاً يعتد السهولة فيه فضيلة، لأن الألفاظ لا تراد لأنفسها وإنها تراد لتجعل أدلة على المعاني، فإذا عدمت الذي له تراد أو اختل أمرها فيه لم يعتد بالأوصاف التي تكون في أنفسها عليها، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحدة"[1]

وقد مر بك رأي الباقلاني في أن الفنون البلاغية لا تعد معجزة إلا إذا نظر لها من خلال النظم. كما مر بك حديث الجاحظ عن اللفظ والمعنى، وقد أوضحنا هناك أنه لا يعتد باللفظ المجرد ولا بالمعاني اللغوية والمعاني العامة، وإنها يعتد بالصياغة وجودة السبك، وحسن النظم كما مر بك أيضًا حديث القاضي عبد الجبار عن النظم وتفسيره له، وحديث ابن رشيق عن تلازم اللفظ والمعنى ووجوب الحسن لأحدهما إذا ثبت للآخر، وقد أفاد عبد القاهر من حديثهم واستطاع أن يبرز هذه النظرية، أنه هو الذي شرح وحلل واستشهد وفصل وأعاد وكرر حتى رسخت نظرية النظم وقرت في أذهان الدارسين...

وقد عقد فصولاً عدة شرح فيها الأسس التي تنبني عليها نظرية النظم، بدأها بفصل تحدث فيه عن التقديم وأثره في المعنى فأنكر أن

[1] ارجع إلي دلائل الإعجاز: ص١٣٢،ص٣٨٩،ص٤٥٥

يفسر التقديم بالتوسعة على الشاعر والناثر، أو يعلل بالعناية والاهتمام بالمقدم دون إبراز مغزى هذا الاهتمام وتلك العناية، ثم تحدث عن أثر التقديم بعد همزة الاستفهام، والنفي والخبر المثبت، وتقديم النكرة ومثل وغير وألفاظ العموم، فذكر أن المستفهم عنه يتحتم إيلاؤه همزة الاستفهام، -عندما تكون للتصور- فيقال في السؤال عن الفاعل: أأنت؟ وعن الفعل: أفعلت وعن المفعول: أزيدا أكرمت وعن الظرف: أفي الدار زيد؟، وينبغي على البليغ أن يراعي هذا وألا يبني عباراته وجمله بناء متناقضا، فمن الخطأ أن يقول: أأنت فعلت أم لم تفعل؟ أفعلت هذا أم زيد؟ أزيدا أكرمت أم أهنت؟ أفي الدار زيد أم عمرو؟ وقد مر بك تجويز سيبويه واستحسانه لنحو قولك: أعندك زيد أم عمرو؟ وعرفت كيف توفق بين الرأيين.

وأما التقديم بعد النفي فذكر عبد القاهر، أن قولك: "ما فعلت"، يفيد شيئًا واحدًا وهو نفي الفعل عنك، أما قولك: "ما أنا فعلت" فيفيد ثلاثة أمور: نفي الفعل عنك... إثبات نفس الفعل الذي نفي عنك... وجود فاعل آخر فعل هذا الفعل، ولذا كان من الخطأ أن تقول: ما أنا فعلت هذا ولا أحد من الناس. ما أنا فعلت شيئا، ما أنا أكرمت إلا زيدا...

وتقديم المفعول أو الظرف مثل تقديم المسند إليه يفيد الاختصاص المذكور، ولذا لا يقال: زيدا أكرمت ولا أهنت... ما زيدا أكرمت، بل أهنت... ما بهذا أمرتك ولا بغيره، وأما التقديم في الإثبات نحو: "أنا

فعلت وهم فعلوا" فيفيد إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص بحسب السياق وما تقتضيه قرائن الأحوال، وتقديم النكرة في ذلك كتقديم المعرفة... وأما مثل وغير فإذا أريد بها الكناية عما أضيفتا إليه كان تقديمها كالواجب نحو: مثلك يفعل هذا وغيري يأكل المعروف سحتا... ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، فإن لم يرد بهما الكناية فتقديمها وتأخيرهما سواء.

كما في قول الشاعر:

غيري جنـي وأنـا المعاقب فيكم * فكـأنني سبابة المتنـــــــدم

وقول الآخر:

تشابه دمعي إذ جرى ومدامتي* فمن مثل ما في الكأس عيني تسكب

ويتحدث في موضع آخر عن تقديم "كل" وغيرها من ألفاظ العموم فيذكر أنها إذا قدمت على النفي كان المعنى على عموم النفي وشموله جميع الأفراد نحو: كل ذلك لم يكن، كله لم أصنع، وإن وقعت في حيز النفي كان المعنى على نفي البعض دون البعض الآخر كقولك: لم يأتني القوم كلهم، ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد، ما كل ما يتمنى المرء يدركه..

وقد عرض عبد القاهر لذلك الشواهد العديدة وحلل وفصل، ووضح وبين، وكثيرًا ما يحيل على الذوق ويطلب من المخاطب أن يتأمل

وينظر وكأنه يريد منه أن يصل إلى ما وصل إليه، وأن يدرك ما أدركه ويشعر بما شعر هو به من حسن وجمال.

ويعقد فصلاً للحذف فيقول: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ. عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر، وأنا أكتب لك بدينا أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه ..."[1]

ثم يعرض - لحذف المبتدأ؛ فيذكر أنه قد كثر عند ذكر الديار والأطلال كقوله:

اعتاد قلبك من ليلى عوائده * وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواد أذاع المعصرات به *وكل حيران سار ماؤه خضل

وكذا عند القطع والاستئناف حيث يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر يخبر من غير مبتدأ، كقوله:

هم حلوا من الشرف المعلى* ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

بناة مكارم وأساة كلم * دماؤهم من الكلب الشفاء

ويشير إشارة إلى حذف الفعل في بيت ذي الرمة:

ديار مية إذ مي تساعفنا * ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

---

[1] دلائل الإعجاز: ١٧٠.

ويفصل القول في حذف المفعول وما يكمن وراء حذفه من أسرار ودقائق، وتلك طريقته في البحث والدراسة، تراه ينقب عن المزايا ويبحث عن الأسرار ويفتش عن الدقائق واللطائف.

تأمل أقواله في التفرقة بين الحذف وتقدير المحذوف، وكيف أن التقدير يفسد المعنى ويذهب برونق الحذف ويضيع البهجة الكامنة وراءه: "ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ وتباعده عن وهمك وتجتهد ألا يدور في خلدك ولا يعرض لخاطرك وتراك كأنك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه والثقيل يخشى هجومه... ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به... تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه إلى سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد..."[1]

الخلاصة: وعلى هذا المنوال استمر عبد القاهر في شرح الأسس التي يقوم عليها النظم، فتحدث عن الفصل والوصل وعن فروق في الخبر والحال وعن أضرب الخبر والمجاز العقلي كما تحدث عن الاستعارة وفرق بينها وبين التشبيه البليغ، وتحدث عن الكناية وعن الجناس والسجع والمزاوجة والتقسيم والجمع، وغير ذلك من ألوان بلاغية،

---

[1] (١) دلائل الإعجاز، ١٧٤، ١٧٥.

وهو يقصد من وراء ذلك إيضاح نظرية النظم وإبراز الأسس التي تقوم عليها.

يقول في حديثه عن الجناس وأثره في المعنى: "وإذا نظرت إلى تجنيس أبي تمام: أمذهب أم مذهب، فاستضعفته وإلى تجنيس القائل: "حتى نجا من خوفه وما نجا".

وقول المحدث:

ناظـراه فيمـا جنـى نـاظراه ***أودعـاني أمـت بـما أودعـاني فاستحسنته، لم تشك بحال أن ذلك لم يكن لأمر يرجع إلى اللفظ، ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت في الأول وقويت في الثاني، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة لا تجد لها فائدة -إن وجدت- إلا متكلفة متمحلة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها""[1]

وقد استمد السكاكي- وتبعه البلاغيون- مباحث علم المعاني من تلك الأسس التي بنى عليها عبد القاهر نظرية النظم في كتابه: "دلائل الإعجاز".

---

[1] (١) دلائل الإعجاز: ٤٥٧.

أسرار البلاغة

أما كتاب "أسرار البلاغة"، فيتناول فيه التشبيه والتمثيل والاستعارة بصورة مفصلة مبينة، كما عرض فيه للمجاز العقلي مفرقا بينه وبين المجاز اللغوي، وقد بدأه بالحديث عن التجنيس والسجع مبرزا أثرهما في المعنى ومبينا أنها ليس لمجرد الزينة والتزويق، ولم يشر عبد القاهر أي إشارة تدل على أنه يسمى مباحث التمثيل والتشبيه والمجاز "علم البيان"، بل إنه يطلق على تلك المباحث: "البديع"، كما صنع سابقوه؛ إذ يقول: "وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بها إلا من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب"[1]، وأما تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فلم يتم إلا بعد عبد القاهر، كما ذكرت لك.

ويستهل عبد القاهر مباحثه في الكتاب بالحديث عن الجناس والسجع فيقول: "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين، إلا إذا كان موقع معنييها من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينها مرمى بعيدا، أتراك استضعت تجنيس أبي تمام في قوله:

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ** فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل: "حتى نجا من خوفه وما نجا"

[1] أسرار البلاغة ص: ٢٨.

وقول المحدث:

نـاظـراه فـيمـا جـنـي نـاظـراه * أودعـانـي أمـت بـمـا أودعـانـي

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة؛ فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصا المستوفي منه المتفق في الصورة- من حلي الشعر ومذكورا في أقسام البديع"[1]

وقد مر بك هذا القول له في كتابه: "دلائل الإعجاز"، ولا يخفى عليك رجوعه جمال الجناس وحسنه إلى المعنى، وما يحدثه في النفس من أثر غير مرتقب، وينفي أن يكون الحسن راجعا إلى اللفظ وجرس الحروف فحسنه حسن ذاتي وليس عرضيًا.

<u>ويمضي عبد القاهر في الحديث عن الجناس والسجع فيذكر أن مثل هذه الفنون تستحسن وتحمد إذا جاءت عفو الخاطر وبلا تكلف، أما إذا تكلفت وقصدت فإنها تذم ولا تقبل.</u>

"وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولاً ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده، لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه حولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠.

وأعلاه، وأحق بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه"... وإذا كان في الدلائل قد ذكر الجناس التام فقط وأبرز حسنه فإنك تراه ههنا في الأسرار يمضي إلى الجناس غير التام فيتحدث عما له من جمال وحسن إذ يقول: "واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس وجعلتها العلة في استجابة الفضيلة وهي حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذي لا يمكن دفعه إلا في المستوفى المتفق الصورة منه.

كقوله: ما مات من كرم الزمان فإنه *يحيا لدى يحيى بن عبد الله أو المرفو الجاري هذا المجرى كقوله: "أو دعاني أمت بها أودعاني" فقد يتصور في ذلك من أقسامه أيضا، فما يظهر ذلك فيه ما كان نحو قول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم *تصول بأسياف قواض قواضب

وقول البحتري:

لئن صدفت عنا فربت أنفس* صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة، كالميم فيمن عواصم والباء من قواضب، أنها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود إليك مؤكدة، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخييل،

وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال...."[1]

ويستمر عبد القاهر فيتحدث عن الحشو ويقسمه إلى مفيد وغير مفيد، ويشير إلى الطباق فيذكر أن الحسن والقبح يعترض الكلام به وبالاستعارة من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الاستعارة فيذكر أن المعاني تتفق وتختلف وتجتمع وتفترق ولكي نقف على الشريف منها ونعرف غير الشريف، لابد من مقدمات تقدم وأصول تمهد، وأشياء حقها أن تجمع وضروب من القول ينبغي أن تقطع:

"وأول ذلك وأولاه وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة؛ فإن هذه أصول كثيرة كانت جل محاسن الكلام –إن لم نقل كلها- متفرعة عنها وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها ولا يقنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تذكر ونظائر تعد نحو أن يقال: الاستعارة مثل قولهم: "الفكرة مخ العمل"، وقوله: "وعري أفراس الصبا ورواحله"، وقوله: "السفر ميزان القوم"، وقول الأعرابي: "كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، وإذا تصافحوا

---

[1] (١) أسرار البلاغة ص: ٢٠.

بالسيوف فغر الحمام"، والتمثيل كقوله: "فإنك كالليل الذي هو مدركي"[1]

ويمضي في حديثه عن الاستعارة فيقول: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقل إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية"[2]

ثم يقسمها إلى مفيدة وغير مفيدة، جاعلاً غير المفيدة قصيرة الباع قليلة الاتساع، ممثلاً لها بنحو إطلاقهم مشفر البعير على شفة الإنسان دون ملاحظة المبالغة في وصف الشفة بالغلظ والتدلي مثلاً، وقد عرف ذلك فيما بعد باسم المجاز المرسل، أما المفيدة فهي التي يقصد بها قصدا إلى المبالغة نحو: "كلمت بحرا"، والمفيدة هي الجديرة باسم الاستعارة، لأنها أمد ميدانا وأشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة وأبعد غورا، ومتى كانت الاستعارة على هذا الوصف فهي من حلي الشعر، ومعدودة ضمن ألوان البديع.

وهكذا يمضي عبد القاهر مفصلاً القول في الاستعارة تفصيلاً لم نعهده عند أحد من سابقيه، فقد تحدث عما تحدثه في النفس من أنس وما

---

[1] (١) أسرار البلاغة ص ٣٤، والمثال الثاني من بيت لزهير أبي سلمى وتمامه: _ صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله والمثال الأخير من بيت للنابغة الذبياني وتمامه: فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأي عنك واسع

[2] أسرار البلاغة ص: ٣٦

تجلبه من متعة ولذة، وبين أقسامها فقال: إنها تجري في الأسماء وتجري في الأفعال، والتي تجري في الأسماء إما محققة وإما مرموزا لها، وقد أفاد البلاغيون من ذلك فيما بعد فنوعوا الاستعارة إلى تبعية وأصلية، والأصلية إلى تصريحية ومكنية.

وأفاض عبد القاهر في التفرقة بين التصريحية والمكنية، أو كما ساها: "المحققة والمرموز إليها"، فقال: "اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة، فإنها لا تخلو من أن تكون استها أو فعلاً، فإذا كانت استها فإنه يقع مستعارا على قسمين: أحدهما: أن تنقله عن مساه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم، فتجريه عليه وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف، وذلك قولك: رأيت أسدا وأنت تعني رجلاً شجاعا، ورنت له ظبية، وأنت تعني امرأة، وأبديت نورا تعني هدى وبيانا وحجة، وما شاكل ذلك، فالاسم في هذا كله، كما تراه متناولاً شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال:

إنه عني بالاسم وكنى به عنه، ونقل عن مساه الأصلي فجعل استا له على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه، والثاني: أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يشار إليه فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبه منابه، ومثاله قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرة * إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يدا ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك: انبرى لي أسد يزأر، وسللت سيفا على العدو لا يفل، والظباء على النساء في قوله: "من الظباء الغيد"[1]والنور على الهدى والبيان في قولك: أبديت نورا ساطعا [2]

ويضيف: "وطريقة أخرى في بيان الفرق بين القسمين وهو أن الشبه في القسم الأول الذي هو نحو: رأيت أسدا، تريد رجلاً شجاعا، وصف موجود في الشيء الذي له استعرت واليد ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهي التصرف على وجه مخصوص" [3]

ويمضي إلى الاستعارة في الفعل فيبين أن الاستعارة في الأفعال تجري فيها تبعا لجريانها في مصادرها، ويفصل القول في الجامع بين طرفي الاستعارة ثم ينتقل إلى التشبيه والتمثيل فيفرق بينها ويفصل القول في التشبيهات المفردة والمركبة والتشبيهات الحسية والعقلية والقريبة المبتذلة والبعيدة الغريبة وأدوات التشبيه، ويفيض في بيان التشبيه التمثيلي وتحليل شواهده، والكشف عن أسراره ومواطن حسنه وجماله، ويفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ويعرض للمجاز

---

[1] من بيت البحتري وهو ضمن قصيدة يمدح فيها المعتز بالله.
مـن عـذيرى مـن الـظبـاء الغيد ** ومجيـري مـــن ظلمهــن العـتيد
[2] أسرار البلاغة: ٤٨-٤٩
[3] أسرار البلاغة: ٥٣

العقلي فيشرح ويفصل ويبين ويحدد مفرقا بين التجوز في الإسناد والتجوز في الكلمة...

ويعرض للتخييل فيبين أنواعه المختلفة مستشهدا لها ومحللاً وشارحا، فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه حتى أعطي شبها من الحق وغشي رونقا من الصدق: كما في قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى* فالسيل حرب للمكان العالي

ومنه ما يبنى على حسن التعليل بأن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنها كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو تعظيم أمر من الأمور، كما في قول المتنبي:

ما به قتل أعاديه، ولكن ** يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

ومن التخييل ما يبنى على تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه، كما في قول أبي تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول ** بأن له حاجة في السماء

وفي أثناء حديثه عن الفروق بين الاستعارة والتشبيه البليغ يعرض للتجريد وإن لم يسمه بهذه التسمية، كما في قوله تعالى: (لهم فيها دار الخلد) [فصلت: ٢٨]، وقولك: لقيت به أسدا ورأيت به لئيما، وقول الأعشى:

يا خير من يركب المطي ولا ** يشرب كأسا بكف من بخلاً

ويختتم عبد القاهر كتابه: "أسرار البلاغة" بالحديث عن مجاز الحذف وهو ما لا يجري فيه نقل الكلمة عن معناها الأصلي إلى معنى جديد، وإنما يجري فيه تغير الحكم الإعرابي بسبب ما يدخله من الحذف كما في قوله تعالى: "وسئل القرية " [يوسف: ٨٢]، فقد نصبت "القرية" وكانت قبل الحذف مجرورة.

هذا وما ذكرته هنا عن كتابي: "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة" نزر يسير من تفصيل كثير لا غنى لدارس البلاغة من الوقوف عليه والإحاطة به، فعليك أن ترجع إلى الكتابين وتقف على صنيع عبد القاهر ليتضح لك أنه قد أفاد من سابقيه واستطاع بحسه المرهف ونفاذ بصيرته، أن يكشف عن خصائص الصبغ والتراكيب وأن يجلي الأسرار والدقائق الكامنة وراء الصور البيانية من خلال ما يعرضه من آي الذكر الحكيم والحديث الشريف ومن التعبيرات الجيدة ونماذج الشعر العربي وفرائده، فماذا بعد عبد القاهر؟ ... كيف سار البحث البلاغي بعده؟

مسار البحث البلاغي بعد عبد القاهر

تغير البحث البلاغي بعد عبد القاهر وسار في اتجاهات مختلفة، فقد رأينا تطبيقات الزمخشري "ت ٥٣٨ هـ" في كتابه "الكشاف"؛ حيث استطاع أن يستوعب كل ما كتبه السابقون وبخاصة ما كتبه الإمام عبد القاهر في كتابيه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" ومضى

يطبقه تطبيقا دقيقا على آي الذكر الحكيم، ولم يدع رأيا من الآراء ولا مسألة من المسائل إلا وساق لها الشواهد من الآيات الكريمة حتى تتضح وتجلى، ولم يقف عند هذا الحد، بل مضى يتمم تلك الآراء ويستكمل تلك المسائل مضيفا إليها إضافات تنم عن فكر ثاقب وحس مرهف.

الاتجاه الفلسفي

وكان هناك اتجاه فلسفي منطقي، مال بالبلاغة نحو القواعد والتلخيص، وقد تمثل هذا الاتجاه في كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن علي الرازي "ت ٦٠٦هـ" الذي لخص كتابي عبد القاهر "الدلائل" و "الأسرار" فكان بعمله هذا أول من قعد علوم البلاغة ورتب مسائلها في تقنين علمي هو الأول من نوعه، وبذلك قضى على الروح الأدبية التي شاهدناها في كتابي الجرجاني، ومال، بل وانحرف نحو الضبط والحصر المنطقي بذكر الحدود وبيان القيود وإخراج المحترزات.

وتلاه السكاكي "ت ٦٢٦هـ" بكتابه مفتاح العلوم الذي خص الجزء الثالث منه بعلمي المعاني والبيان، ملحقا بها دراسة المحسنات المعنوية واللفظية، فهو أول من قسم البلاغة إلى علمين: "المعاني" ويتناول المباحث التي تعرض لصياغة الجمل وبناء التراكيب والتي تحدث عنها عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" و"البيان" ويتناول

مباحث الصورة من تشبيه ومجاز وكناية والتي عرض لها عبد القاهر في "أسرار البلاغة" ولم يجعل البديع علا ثالثا مستقلاً عن علمي المعاني والبيان، بل جعله لاحقا بها إذ يقول عنه: "وهناك وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ [1]

وعلى القسم الثالث من مفتاح العلوم، قامت الشروح ودونت التلخيصات، فألف بدر الدين ابن مالك: "ت٦٨٦هـ" كتابه "المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع"، وقد سار فيه على نهج السكاكي وتقسيماته، وعلى الرغم من اعترافه بأن المحسنات من توابع العلمين "المعاني والبيان" إلا أنه جعلها علها مستقلاً سياه: "علم البديع" وبذلك صارت البلاغة متضمنة ثلاثة علوم.

ثم جاء الخطيب القزويني: "ت ٧٣٩ه" فوضع تلخيصه وهو تلخيص للجزء الثالث من مفتاح العلوم، وسماه: "تلخيص المفتاح" وقد شعر العلماء بأنه مختصر شديد الاختصار لا يشفي غليل الدارس، فوضعوا عليه شروحا عدة عرفت باسم: "شروح التلخيص وأهمها: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح "لبهاء الدين السبكي": "ت ٧٧٣ه"، و"المطول والمختصر" لسعد الدين التفتازاني: "ت ٧٩١ه" والأطول لعصام الدين بن عربشاه الأسفراييني الذي توفي بسمرقند

[1] مفتاح العلوم:٢٢٤

في منتصف القرن العاشر الهجري، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي: "ت ١١١٠هـ" و"الجان" لجلال الدين السيوطي: "ت ٩١١ه" وهو أرجوزة تختصر متن التلخيص، وقد وضع عليها شرحا سماه: "عقود الجمان".

وعلى المطول وضعت حاشيتا السيد الشريف الجرجاني: "ت ٨١٦ه" وعبد الحكيم السيالكوتي الهندي: "ت١٠٦٧ه" وعلى المختصر وضع الشيخ محمد الدسوقي المصري: "ت ١٢٣٠هـ" حاشية...

وكأن الخطيب نفسه قد شعر بها في التلخيص من شدة اختصار فأتبعه بكتاب سماه "الإيضاح لتلخيص المفتاح"، وهو فيه أقرب إلى روح عبد القاهر؛ إذ نراه يحلل ويوضح ويكثر من الشواهد والأمثلة مبرزا ما فيها من أسرار ودقائق، وقد جمعت الشروح الثلاثة: مختصر سعد الدين، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح في كتاب

وضع بهامشه: كتاب الايضاح للقزوينى، وحاشية الدسوقى على "المختصر" وعرف هذا الكتاب باسم: "شروح التلخيص" ويقع في أربع مجلدات

الاتجاه الأدبي

وبالإضافة إلى الاتجاه الفلسفي الذي ظهر في المفتاح وتلخيصه وشروحه وإلى تطبيقات الزمخشري في الكشاف، وجد اتجاه أدبي تمثل كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير: "ت

٦٣٧هـ" وكتابي: "تحرير التحبير" و"بديع القرآن" لابن أبي الإصبع المصري: "ت ٦٥٤وكتاب "الطراز" ليحيى بن حمزة العلوى ٧٠٩وقد تناولت هذه الكتب دراسة البلاغة بطريقة أدبية تذوقية، تعتمد على تحليل النصوص والشواهد، والكشف فيها عن البلاغة والجمال دون احتفال بالتعاريف والخلافات والأقيسة المنطقية.

كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير

ابن الأثير:[1] هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب "ضياء الدين".

كان مولده بجزيرة ابن عمر ونشأ بها، وانتقل مع والده إلى الموصل، وبها اشتغل، وحصل العلوم، وحفظ كتاب الله الكريم، وكثيرًا من الأحاديث النبوية، وطرفًا صالحًا من النحو واللغة وعلم البيان، وشيئًا كثيرًا من الأشعار.

ولما كملت لضياء الدين الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين -تغمَّده الله برحمته- فوصله القاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين.

ثم طلبه ولده الملك الأفضل نور الدين من والده، فخيَّره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته، والانتقال إلى ولده، فاختار ولده، فمضى إليه، وكان يومئذ شابًا، فاستوزره ولده الملك الأفضل نور الدين.

[1] انظر في ترجمة ابن الأثير: وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢٠٨/٢، والأعلام، للزركلي

ولما توفي السلطان صلاح الدين، واستقلَّ ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق، استقلَّ ضياء الدين المذكور بالوزارة، وردت أمور الناس إليه، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه.

، ثم عاد إلى الموصل، واتخذها دار إقامته، واستقرَّ وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه، وأتابك يومئذ بدر الدين أبو الفضائل النوري، وذلك في سنة ٦١٨ هـ.

ولقد كان ابن الأثير أديبًا من كبار أدباء العرب، وكاتبًا من كتابهم المعدودين، والكاتب - كما يرى ابن الأثير- ينبغي أن يتعلق بكل علم، وفي رأيه أن كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه، فيقال: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم. ولا يسوغ له أن ينسب إلى الكتابة، فيقال: فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه الكاتب من الخوض في كل فن.

شروط ثقافة الأديب والبلاغي عند ابن الأثير:

وبمثل هذه النظرة إلى الأديب الكاتب وما ينبغي له، نظر ابن الأثير إلى البلاغي أو صاحب البيان، وذهب إلى أنه لا ينبغي له أن يقدِّم على هذا العلم إلّا إذا اكتملت لديه ألوان ثمانية من المعارف، وهي:

١- معرفة علم العربية من النحو والتصريف.

٢- معرفة المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب، ولا المستكره المعيب.

٣- معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضًا.

٤- الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور.

٥- معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك، لما يحتاج إليه الكاتب عارفًا بالحكم في الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها، وما هو رخصة في ذلك، وما ليس برخصة، فإنه لا يستطيع أن يكتب كتابًا ينتفع به.

٦- حفظ القرآن الكريم، فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفًا به؛ لأن فيه فوائد كثيرة؛ منها أن يضمِّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها، واستعمالها في مواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق، وإذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحرًا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه.

٧- حفظ الأخبار النبوية، مما يحتاج إلى استعماله، فإن الأمر في ذلك يجري مجرى القرآن الكريم.

٨- ما يختص بالناظم دون الناثر، وذلك معرفة العروض، وما يجوز فيه من الزحاف، وما لا يجوز، فإن الشاعر محتاج إليه، وإن كان

النظم مبنيًّا على الذوق، ولكن الذوق قد ينبو عن الزحافات. ويكون ذلك جائزًا في العروض، وقد ورد للعرب مثله، فإذا كان الشاعر غير عالم به، لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز.

وكذلك يحتاج الشاعر أيضًا إلى معرفة علم القوافي، ليعلم الروي والردف، وما يصح من ذلك وما لا يصح.

وقد اشترط ابن الأثير قبل تحصل تلك المعارف جميعها أن يكون الله تعالى قد ركَّب في الأديب طبعًا قابلًا لهذا الفن، ورأى أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فنٍّ من الفنون، حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، وإلى ما يقوله المنادي على السلعة في السوق، والسبب في ذلك أنه مؤهَّل لأن يهيم في كل واد، فيحتاج أن يتعلق بكل فن؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، وقد يستفيدها أهلها من غير أهلها.

وهكذا يغالي ابن الأثير في ثقافة الأديب، ويرى أنها لا حصر لمواردها، ويذهب إلى أن البيان كالجمال، لا نهاية لكل منهما.

ولقد كان ضياء الدين على حظٍّ عظيم من تلك الثقافات، كما يشهد لذلك هذا الكتاب، وما أودع من فنونها الكثيرة التي حصلها بجده، والطبع الأصيل الذي منحه الله إياه، وكل ركن من الأركان التي ذكرها، وكل آلة من الآلات التي أوجب أن تكون طوع يمين الكاتب، فقد عني نفسه في البحث عنها في مظانِّها.

على حين أن ابن الأثير كانت صفته الأساسية البارزة اشتغاله بالأدب، واحترافه فنّ الكتابة الذي عد علمًا من أعلامه، وارتقى به هذا الفن حتى وصل به إلى مرتبة الوزارة، وتصريف شئون المملكة، بصرف النظر عن مدى توفيقه في ذلك المنصب الخطير.

لذلك كانت آراؤه في الأدب والنقد صادرة عن الفن الذي أعدَّ نفسه له، وعن التجربة التي عاش فيها حياته. ولذلك قرأ ضياء الدين آثار الكُتَّاب الذين ذاع صيتهم وحلَّق نجمهم في سماء صناعة الكتابة، ليقف على مناهجهم فيها، وينقد منها ما لا يراه جاريًا وفق مقاييسه التي يرتضيها، وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصنعة، ولم يقف في سبيل ذلك عند آثار القدماء من فحول هذه الصناعة، بل إنه نقد معاصريه منهم، وهم الذين كان يُشار إليهم في عصره في هذه الصناعة بالبنان.

وكان ابن الأثير لا يقنع بما يوجهه إلى أولئك الأعلام من النقد لآثارهم، ولكنه كان يتبع هذا النقد بنماذج من آثاره، ويوقف على الفرق بين أسلوبه وأسلوب غيره، حتى يستدرج قارئه إلى الإذعان لنبوغه

ومن أمثلة ذلك أنه نقد أبا إسحاق الصابيّ في كثير من المواضع، وأورد له الرسائل الطويلة، والنتف اليسيرة، وأتبعها بكتابته، ليرى الفرق بين الكتابتين؛ فمن ذلك ما أورده من قول الصابيّ في صفة

النبي -صلى الله عليه وسلم: "لم ير للكفر أثرًا إلّا طمسه ومحاه، ولا رسمًا إلّا أزاله وعفاه"، وقد عابه ابن الأثير بأنه لا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، وكذلك لا فرق بين محو الأثر وعفاء الرسم.

٤- وعاب على الصاحب بن عبَّاد ما كتبه في وصف مهزومين "طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلابهم نحورهم" بقوله: إن كلا المعنيين سواء..

وقول الصاحب من كتاب "وصل كتابه جامعًا من الفوائد، أشدها للشكر استحقاقًا، وأتمها للحمد استغراقًا، وتعرفّت من إحسان الله فيما وفر من سلامته، وهنأه من كرامته، أنفس موهوب ومطلوب، وأحمد مرقوب ومخطوب" نقده ابن الأثير بأنَّ هذا كله متماثل المعاني متشابه الألفاظ.

ثقافة ابن الأثير ومكانته الأدبية:

وقد يكون ابن الأثير على حقٍّ في كل ما قال، أو في أكثر ما قال مما نقد به أولئك الكُتَّاب من الناحية الفنية، وقد لا يكون كذلك، وإنما الغاية من سوق هذه الشواهد أن ابن الأثير قد عاش في جو الكتابة والكُتَّاب كاتبًا يقرأ كثيرًا، ويتعمَّق فيما يقرأ، ويبحث عن أسباب القوة وأسباب الضعف، ثم يعرض ذلك على ذهنه وبصيرته الفنية الواعية، ثم يكتب ما شاء أن يكتب مجردًا كتابته من أسباب الضعف، ومضيفًا

إليها من أسباب القوة ما رآه يزيد في قدره، ويرفع من شأن كتابته، ومحققًا المثل التي تصورها لفن الكتابة.

وكذلك كان ابن الأثير شاعرًا، وإن غلبت صناعة الكتابة على فنه الأدبي، ولذلك كان ما رُوِيَ له من الشعر قليلًا، وإنما ذكرنا ذلك لندلَّ على أن ابن الأثير كان يعبِّر عن تجربته شعرًا، كما عبَّر عنها نثرًا، وأنه فيما كتب في المثل السائر كان يستوحي طبيعته الفنية، قبل أن يتخيل الرسوم والقواعد التي تخيلها من قبله علماء البلاغة والنقد.

وقد أقدم ابن الأثير على صناعة الأدب بعامَّة، وصناعة الكتابة بخاصة، بعد أن زود نفسه بآلاتها، وثقفها بألوان الثقافات التي عددها، وقد أحسَّ بالحاجة إليها كلَّما أوغل فيها، وأحسَّ أن خطورة هذا الفن، وبعد أثره لا تقلّ عن خطورة المناصب الرفيعة التي يتولاها صاحبه في قربه من الحكام، وفي تصريفه لأمور الدولة.

وما رأيك في رجل كان يحفظ القرآن، والحديث النبوي، ودواوين الشعراء، ويعرف من اللغة شاردها وواردها، ومن النحو أصوله وفروعه، ومن الصرف دقائقه، ومن الأخبار والأمثال، وهذه صورة من تلك الجهود المضنية التي بذلها في تكميل نفسه، يقول عن نفسه: وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابًا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر، كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار

على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة، وصار محفوظًا لا يشذَّ عني منه شيء..

ويقول في موضع آخر: "واعلم أن المتصدي لحل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل، وهذا شيء جرَّبته وخَبَرْتُه، فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مرَّ بي معنًى أثبته في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي أثبتها واحدًا بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل ما فعلته أولًا، وكلما صقلتها التلاوة مرةً بعد مرةٍ ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في التي قبلها.. " .

وأما معرفة ابن الأثير بالشعراء وحفظه الشعر فحدّث عنهما ما شئت، ولقد برزت آثار تلك المعرفة وذلك الحفظ واضحة في المثل السائر وغيره من آثار ضياء الدين، يقول في المثل: "إني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها، حتى لم أترك ديوانًا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا وعرضته على نظري"، ويقول: "ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع، وأنفدت شطرًا من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحرًا لا يوقف على ساحله، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله".

وبعد أن حصل ضياء الدين هذه الثروة الضخمة من فنِّ المنظوم، اقتصر منها على ما تكثر فوائده، وتتشعّب مقاصده، ويقول عن نفسه: "لم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر استخراجًا منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أجد أحسن تهذيبًا للألفاظ من أبي عبادة، ولا أنقش ديباجة، ولا أبهج سبكًا، فاخترت حينئذ دواوينهم، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

ولقد كان اطلاع ابن الأثير على هذا الشعر الكثير، وحفظه ما استطاع من نصوصه سببًا من أهم الأسباب في توسيع مجال دراسته البيانية، وكثرة ما اهتدى إليه من أحكام، أكثرها سديد مصيب، تظهر فيه شخصية الواثق بعلمه، المطمئن إلى حسن رأيه.

من الكتب التي تأثر بها في مؤلفه

وتطالعنا في ثنايا المثل السائر أسماء كثير من الكتب التي قرأها ابن الأثير، وفقه ما فيها، فأعانته على ما تعرض له من دراسة الأدب في فنونه المشهورة، وفي كل جزئية من جزئيات العمل الأدبي..

وقد اعتمد ابن الأثير نفسه على كثر من أمهات، الكتب في كل فنٍّ من الفنون التي تعرَّض لها، وقد أشار إلى هذه المراجع في أثناء دراسته.

١- فقد ذكر أن مما قرأ في التفسير تفسير البلاذري، وتفسير النقاش المسمَّى "شفاء الصدور".

٢- وقرأ في الحديث النبوي كتاب "الشهاب"، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، والترمذي؛ وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وغيرها من كتب الحديث.

٣- وقرأ في الدين وأصوله "إحياء علوم الدين" وكتاب "الأربعين" للإمام أبي حامد الغزالي.

٤- وقرأ في اللغة والتصريف كتاب "الخصائص" لأبي الفتح بن جني، وكتاب "التصريف" لأبي عثمان المازني، وكتاب "الفصيح" للإمام ثعلب، وكتاب "إصلاح ما تغلط فيه العامة" لأبي منصور الجواليقي، و"مجمع الأمثال" للميداني.

٥- وكان مما قرأ من كتب الأدب وموسوعاته ودواوين الشعراء وشروحها: كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب "الروضة" لمحمد بن يزيد المبرد، الذي وصفه بأنه كتاب جمعه، واختار فيه أشعار شعراء، بدأ فيه بأبي نواس، ثم بمن كان في زمانه، وانحسب على ذيله.

كما قرأ كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"ديوان الحماسة" لأبي تمام، و"البيان والتبيين" لأبي عثمان الجاحظ، وقرأ "مقامات الحريري"، ورسائل أبي إسحاق الصابي، ورسائل الصاحب بن عبَّاد،

وشرح ديوان المتنبي لأبي الفتح ابن جني، و"لزوم ما لا يلزم" لأبي العلاء المعري، كما قرأ كتاب "النقائض"، وديوان الفرزدق، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي نواس.

ابن الأثير وعلوم البلاغة

٦- أما كتب البلاغة والبيان فقد قرأ أمهاتها، وأفاد منها، ونقدها، قال في خطبة المثل السائر: وقد ألف الناس فيه -علم البيان- كتبًا، وجلبوا ذهبًا، وحطبوا حطبًا، وما من تأليف إلّا وقد تصفحت شينه وسينه، وعلمت غثَّه وسمينه، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلّا كتاب "الموازنة" لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب "سر الفصاحة" لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي. وأبي عثمان الجاحظ، وقدامة بن جعفر الكاتب، وأبي هلال العسكري، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانميّ

وأشهر كتب هؤلاء الأعلام التي تَتَّصل بهذا الفن هي النكت في إعجاز القرآن للرماني، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، والبيان والتبيين للجاحظ، وكتاب نقد الشعر، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة، وكتاب جواهر الألفاظ، ثلاثتها لقدامة بن جعفر، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، وكتاب صناعة الشعر للغانميّ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي.

كما قرأ وأفاد من كتاب البديع الذي ألَّفه عبد الله بن المعتز، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، وكتاب حلية المحاضرة للحاتميّ، وكتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ومقدمة ابن أفلح البغدادي التي ذكر ابن الأثير أنه قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة.

بهذه الثقافة بل بتلك الثقافات التي حصلها، والعقول التي سبر أغوارها، اقتحم ابن الأثير ميدان البحث البلاغي، فكان كتابه مجموعة من الأفكار المأثورة عن أولئك العلماء الأعلام مزجها بأفكاره، وبدت شخصيته واضحة مستقلة بين سمات تلك الشخصيات، ولم يكتف بأن يكون جامعًا أو ناقلًا، بل أراد أن يكون مؤلفًا في البلاغة، ورائدًا من روَّاد علم البيان، بما أضاف وصحَّحَ، وعاب ونقد.

مؤلفاته:

ولضياء الدين من التصانيف، الدالة على غزارة فضله، وتحقيق نبله كتابه الذي سماه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى، ولم يترك شيئًا يتعلق بفنِّ الكتابة إلا ذكره، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه، فوصل إلى بغداد منه نسخة.

وله كتاب "الوشي المرقوم في حل المنظوم" وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة.

وله كتاب "المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء"، وهو أيضًا نهاية في بابه.

وله مجموع اختار فيه شعر أبي تمام، والبحتري وديك الجن والمتنبي، وهو في مجلد واحد كبير.

وله أيضًا ديوان ترسل في عدة مجلدات، والمختار منه في مجلد واحد.

ولضياء الدين أخوان نابهان، مجد الدين أبو السعادات المبارك، وأبو الحسن علي الملقب عز الدين، وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء، لكل واحد منهم تصانيف نافعة -رحمهم الله تعالى.

وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن، وصنَّف عدة تصانيف نافعة، من مجاميع وغيرها، ورأيت له مجموعًا جمعه الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب، وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه، ومولده بالموصل.

القيمة العلمية لكتاب المثل السائر:

ومن هنا كان المثل السائر لونًا متميزًا من ألوان التأليف في البيان العربي، واستطاع على الرغم من كثرة الآثار فيه، ووفرة الدراسات المتباينة في هذا الكتاب أن يكون مرجعًا من مراجع البلاغة العربية، ولا يستغني عنه باحث من الباحثين فيها.

وقد تأثَّر ابن الأثير في تلك الدراسة الخصبة التي نجدها في المثل السائر بعاملين مهمين؛ هما: العصر الذي عاش فيه، والفن الذي اشتغل به، ووصل به ما كان يشتهي من المنصب والجاه.

١- فقد وصل ابن الأثير إلى قمة مجده، وذروة نضجه، أخريات القرن السادس الهجري وشطرًا كبيرًا من القرن السابع، فجاء بعد ازدهار البحوث البيانية ونضجها، واختلاف مناهج البحث، وتعدد الآراء في البيان، من رأى ينادي بتحكيم الذوق، إلى آخر يدعو إلى التقليد في النظر إلى الأدب، والحكم عليه إلى رأي ينادي بالموضوعية والمنهج العلمي، ويعنى بالتعريف والتنظيم وحصر الأقسام، إلى ذلك الأسلوب النقدي التحليلي النفسي الذي نراه في كتابي عبد القاهر: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وما تميزا به من فكرة النظم التي تبناها عبد القاهر، وأرسى قواعدها في النقد والنظر إلى البيان، وما نادى به من النظرة الكلية للأدب والانتصار للمعنى.

بل رأينا ما هو أكثر من ذلك: رأينا الصورة النهائية للبلاغة العربية قد تَمَّ وضعها على يد السكاكي في كتابه المشهور، مفتاح العلوم، الذي نظَّم دراسة البلاغة، وقنَّنَ لها، وقسمها إلى علومها، وحدَّد مباحث كل فنٍّ منها.

ثم إن هذا الكتاب معدود من أمهات الكتب في البلاغة العربية، ومرجعًا من أهم مراجعها، بما حوى من فنونها الكثيرة المنثورة في بطون الكتب المختلفة في موضوعاتها، المتباينة في مناهجها.

ويمتاز كتاب ابن الأثير من بين أكثر كتب البلاغة بأنه درس تلك الفنون دراستين:

إحداهما: دراسة قاعدية، عني فيها بالحدود والتعاريف وحصر الأقسام، وجمع فيها كل ما استطاع جمعه من معالمها التي اهتدى إليها الذين سبقوه إلى البحث البلاغي، وهو في كثير من المواضع يصحح أخطاءهم، ويضيف إلى تحديداتهم ما جعلها جامعة مانعة على الوجه الذي يهتدي إليه، وبالنظر الذي يهتدى به.

والأخرى: دراسة نقدية، وفيها ألمَّ بكثير من العيوب التي يقع فيها مستعملو تلك الفنون في أشعارهم أو خطبهم أو كتاباتهم.

ولذلك كان من الممكن أن يقال: إن ابن الأثير قد جمع في المثل السائر كثيرًا من أصول البلاغة العربية والنقد الأدبي، وأنه وحَّد هذين الفنين الجمالين، ومزجهما، وأعادهما إلى طبيعتها التي تنفر من الأسلوب القاعدي الجاف، وخلطهما بنصوص من الأدب .

السمات الفنية للكتابة في عهد ابن الأثير:

٢- وكذلك كان ابن الأثير كاتبًا من كتاب الدواوين، كتب للقاضي الفاضل في دولة صلاح الدين، كما كتب لأولاد صلاح الدين من بعده،

والذي يعرف أساليب الكتابة في ذلك العصر الذي عمل فيه ابن الأثير يعرف أنها كانت تمتاز امتيازًا ظاهرًا بلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام معاني الشعر وألفاظه في كتابه الرسائل، بحلِّ الأبيات السائرة والحكم المأثورة، حتى كادت الرسائل تكون شعرًا منثورًا، والاقتباس من كلام البلغاء، وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعراء، ولما نبَّه شأن القاضي الفاضل أراد أن يحاكي كتاب المشارقة في البديع، فزاد عليهم وأربى، وجاراهم في التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم أن استعمل في رسالة كل أنواع البديع التي كانت فاشية وقتئذ في الشعر، كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها، وأكثر من حل المنظوم، والاقتباس من الآيات، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال، وأمعن في التشبيه والاستعارة حتى جاءت معاني رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها.

وقد كانت هاتان الناحيتان عظيمتا الأثر في ابن الأثير، وفي إدراكه لمعنى البيان، كما تصوره في المثل السائر.

تكلم ابن الأثير في خطبة كتابه عن أهمية علم البيان، وذكر أن منزلته في تأليف النَّظْمِ والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام.

ويبدو من أول كلامه أنه رجل كثير الاعتداد بنفسه، والتباهي بعلمه، وكثيرًا ما جرَّه هذا الاعتداد إلى انتقاص غيره من الباحثين فيما بحث فيه، فقد ذكر أن الذين ألفوا في البيان من قبله ألفوا كتبًا، وجلبوا

ذهبًا، وحطبوا حطبًا، وما من تأليف إلّا وقد تصفَّحه، وعلم غثَّه وسمينه، ثم لم يجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب "الموازنة" للآمدي، وكتاب "سر الفصاحة" للخفاجي، والكتاب الأول هو الذي حظي بإعجابه، لأنه -كما يقول: أجمع أصولًا وأجدى محصولًا، مع أن المناسبة بين الكتابين بعيدة، لأن كتاب الآمدي يعرض للشاعرين أبي تمام والبحتري، ويعرض شعرهما، ويوازن بينهما، ويعرض أقوال الأنصار والخصوم فيهما.

أما كتاب الخفاجيّ فإنه يبحث بحثًا عامًّا في أصول الفصاحة والبلاغة والبيان، بما بحث عن أسرارها ودرس من فنونها.

وقد عاب ابن الأثير كتاب سر الفصاحة بأن صاحبه أكثر مما قلَّ به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها، ومن الكلام على اللفظة المقررة، وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره.

ولا يقنع من ذلك إلّا بأن يعود فيعيب الكتابين معًا، فيصفهما بأنهما قد أهملا من علم البيان أبوابًا، وربما ذكرا في بعض المواضع قشورًا أو تركا لبابًا!

وشبيه بهذا الانتقاص وصفه لمقدمة ابن أفلح البغدادي في قوله: ووقعت على كتاب يقال له: "مقدمة ابن أفلح البغدادي" قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة، وللعراقيين بها عناية، وهم واصفون لها، ولما تأمَّلتها وجدتها قشورًا لا لبَّ تحتها؛ لأن

غاية ما عند الرجل أن يقول: وأما الفصاحة فإنها كقول النابغة مثلًا، أو كقول الأعشى، أو غيرهما، ثم يذكر بيتًا من الشعر أو أبياتًا، وما بهذا نعرف حقيقة الفصاحة، حتى إذا وردت في كلام عرفنا أنه فصيح، بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه، وكذلك يقول في غير الفصاحة.

ويذكر في موضع آخر أنه عثر على ضروب كثيرة من البيان في القرآن الكريم، وأنه لم يجد أحد تقدمه تعرض لذكر شيء منها، وهي إن عدت كانت في علم البيان بمقدار شطره، وإذا نظر إلى فوائد وجدت محتوية عليه بأسره، وأن الله هداه لابتداع أشياء لم تكن من قبله مبتدعة، ومنحه درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة، وإنما هي متبعة.

ولقد عرف كتاب "المثل السائر" في بيئات الثقافة العربية على أنه كتاب أدب، وعُرِفَ كذلك على أنه كتاب في أصول البلاغة العربية أحيانًا، وعلى أنه كتاب في النقد الأدبي أيضًا.

ولم يسلم من نقد ابن الأثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربي بالإجلال والإكبار، كامرئ القيس، وتأبط شرًّا، والفرزدق، وأبي نواس وأبي تمام، وأبي الطيب المتنبي، وغيرهم من كبار شعراء العربية.

وفي كثير من الأحيان نجد نقدًا موضوعيًّا، وفي كثير من الأحيان أيضًا نرى ابن الأثير لا يكتفي في النقد الأدبي بحكم المعرفة المستنيرة، بل يكبر من حكم الذوق السليم الذي يرى أنه أكبر من حكم القاعدة الموضوعية والمعرفة المحدودة، ويشجِّع على تربية هذا الذوق بكثرة القراءة ومداومة الاطلاع.

مهمة علماء اللغة وعلماء البيان كما يراها ابن الأثير:

ومن جيد ما وفَّقَ إليه من النظرات الصائبة في هذا الكتاب محاولته التفريق بين مهمة البياني، ومهمة كل من النحوي واللغوي، ويقول في ذلك: إن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، ويسأل صاحب هذا العلم عن أحوالها اللفظية والمعنوية، ويشترك هو والنحوي أو اللغوي في أن الثاني ينظر في دلالته على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة.

أما صاحب البيان فإن له نظرةً فوق هذه النظرة؛ لأنه ينظر في فضيلة تلك الدلالة، التي هي دلالة خاصة، والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء اللغة والنحو والإعراب، ألا ترى أن النحو يفهم معنى الكلام المنظور والمنثور، ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من أسرار الفصاحة والبلاغة؟ وهذا هو السر في خطأ مفسري الأشعار؛ لأنهم اقتصروا على شرح

معناها، وما فيها من الكلمات اللغوية، وتبيين مواضع الإعراب منها، دون العناية بشرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة.

وهذا كلام جيد؛ لأن ابن الأثير يفرِّق فيه بين أمرين هامين، ينبغي أن يكون التفريق بينهما أساسًا لفهم مهمة اللغوي أو النحوي، ومهمة الناقد أو صاحب البيان.

ذلك أن هناك علومًا تتخصَّص في البحث عن صحة العبارة، من حيث صحة مفرداتها، وصحة دلالتها على معانيها، وصحة التركيب الذي توضع فيه وضعًا صحيحًا على حسب ما يقتضي المعنى وفقًا لقواعد النحو والإعراب، وتلك مهمة علماء اللغة الذين يبحثون في بنية الكلمة، وفي دلالتها على معناها، طبقًا للوضع اللغوي، وفهم أصحاب اللغة لتلك الدلالة، وهي مهمة علماء النحو والإعراب الذين يبحثون في صحة ضبط كل لفظ في الجملة على حسب موقعه من العبارة ضبطًا يوافق ما جرى عليه العرب في ذلك الضبط، وما بنيت عليه قواعد النحو والإعراب التي استنبطها أولئك العلماء بالقياس على نهج العرب في كلامهم.

ثم إن هنالك علومًا أخرى لا تقف عند تلك المسائل التقليدية المعروفة، ولكنها تعالج النواحي الجمالية في الأعمال الأدبية على حسب التقاليد الفنية المعروفة التي استنَّها كبار الأدباء، والقواعد المستقاة من مظاهر الحسن التي توافرت للفن الأدبي المأثور عن

أولئك الأدباء، نتيجة لطول المدارسة والموازنة بين نصٍّ ونصٍّ، وبين أديبٍ وأديبٍ، وتلك مهمة النقاد أو البلاغين، أو علماء البيان.

والنظرة الأولى من هاتين النظرتين عامة، تتناول العبارة المقولة، والعبارة المكتوبة بكل أنواعها، سواء أكانت تلك العبارة عبارة علمية تخاطب العقل، أم كانت عبارة أدبية تخاطب المشاعر، وتثير العاطفة والوجدان، وسواء أكانت في أعلى درجات السموِّ، أم كانت هابطة إلى مستوى لغة التفاهم التي تجري بين الناس، ولا تسموا عن العامية إلّا بصحة كلماتها، وسلامة تركيبها.

أما النظرة الأولى فإنها تختص بالعبارة الأدبية، أو الأسلوب الفني، الذي يعتمد عليه الشعر والخطابة، وسائر أساليب الكتابة الفنية.

ومن تلك المسائل أيضًا، مما انفرد به ابن الأثير برأي، أنه في سبيل بحثه عن فصاحة اللفظة المفردة عرض للحوشي من الألفاظ الذي أنكره النقاد، وأجمعوا على إخلاله بالفصاحة، ولكن ضياء الدين يرى أن هذا الوحشي خفي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنُّوه المستقبَح من الألفاظ، وليس كذلك، وذلك أن الوحشي منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفار، وليس بأنيس. وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال، وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحًا، بل أن يكون نافرًا، فتارة يكون حسنًا، وتارة يكون قبيحًا.

ويبنى على هذا أن الوحشي ينقسم إلى قسمين:

أحدها الوحشي الذي جاءت إليه هذه الصفة من غرابته، وهو يختلف باختلاف النسب والإضافات.

وأما القسم الآخر من الوحشي فقبيح، والناس في استقباحه سواء، ولا يختلف فيه عربي باد، ولا قروي متحضر.

وعلى هذا يكون اللفظ عند ابن الأثير أنواعًا:

١- ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا، ولا ينعت بالوحشية أو الحوشية، وهذا هو الحسن من الألفاظ

٢- وما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب؛ لأنه لم يكن عندهم وحشيًّا، وهو عندنا

٣- الوحشي الغليظ، ويسمَّى أيضًا المتوعِّر، وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلّا أجهل الناس، ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن، وإذا ورد كرهه السمع، وثقل على اللسان النطق به.

وإذا كان معنى الحوشي عند ابن الأثير هو الغريب، فإن العرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن، وإنما تلام على استعمال الغريب القبيح.

وأما الحضري فإنه يلام على استعمال القسمين معًا، وهو في أحدهما أحق بالملاءمة من الآخر.

الوحدة العضوية عند ابن الأثير:

وفي هذا الكتاب أدلى ابن الأثير بكثير من الآراء النقدية التي لها اعتبارها في موازين النقد الأدبي، وتراه في كثير من الأحيان لا يرضى بآراء غيره؛ بل يبسط الرأي الذي يراه، والذي يتمشَّى مع ذوقه، والذي يساير -في أكثر الأحيان- الفكرة النقدية السليمة، التي لا يسع القارئ إلّا الإقرار بها والإذعان لها، والشهادة لابن الأثير بالذوق السليم، ومن ذلك هذا العيب الذي سماه أبو هلال العسكري "التضمين" وسماه قدامة بن جعفر "المبتور"، وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد، فيقطعه بالقافية، ويتمِّمُه في البيت الثاني.

وعند أبي هلال العسكري أن التضمين هو أن يكون الفصل الأول مفتقرًا إلى الفصل الثاني، والبيت الأول محتاجًا إلى الأخير.

مرجع هذا العيب في نظرهم أن نقَّاد الشعر العربي قد درجوا على أن وحدة الشعر هي البيت لا القصيدة، ولهذا عدّوا احتياج البيت إلى ما بعده، ليتمم معناه عيبًا من العيوب التي يجب على الشاعر المجيد أن يتجنبها، وهم لا يقصرون هذا العيب على الشعر، بل يجملونه على النثر أيضًا، إذا كانت الفقرة التي تليها.

وهذا الاعتبار لا يخفى فساده؛ لأن القصيدة ينبغي أن تكون وحدة متماسكة، والحكم على الشعر أو الشاعر ببيت واحد لا يخلو من ظلم

وتعسف، واحتجاجهم بأن خير الشعر ما كان البيت فيه قائمًا بنفسه، مستقلًّا عمَّا قبله وعمَّا بعده، حتى يكون كالمثل يصلح للاقتباس، ويصلح للاستشهاد، فيه خروج عن طبيعة الشعر الذي لا يتحرَّى الحكمة وإن كانت فيه، وإنما القصيدة من الشعر أو الفصل من النثر يحدث تأثيره بمجموعه الكلي، حين يحس القارئ أو السامع بالنشوة أو الطرب أو الانفعال، حين يتم قراءة القصيدة من الشعر، أو الفصل من النثر، وإلا فقد جوزنا للشاعر -حين نقصر النظر على البيت الواحد- أن يرضينا في بيت، وأن يسخطنا في تاليه، ويكون الأول في غاية الجودة، ويكون الثاني كذلك، من غير نظر إلى تتابع الأفكار وتناسق الصور، ولا بأس حينئذ بالتعارض أو التناقض على رأيهم.

نعم! قد يكون ذلك عيبًا إذا لم تتمّ الكلمة في البيت، وأتَمَّها الشاعر في البيت الثاني، كتلك الأبيات التي نقلها الخفاجي في سر الفصاحة، ووصفها بأنها قبيحة ظاهرة التكلف، أما احتياج بعض الكلام إلى بعض فلا عيب فيه، بل هو دليل التماسك والترابط بين أجزاء النص الأدبي، وهذا هو المحمود الذي يكون به بعض جزاء الكلام آخذًا برقاب بعض.

ولا يقرّ ابن الأثير أولئك النقاد فيما ذهبوا إليه، فيقول: إن المعيب عند قوم "تضمين الإسناد"، وذلك يقع في بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور، على أن يكون الأول منهما مسندًا إلى الثاني، فلا

يقوم الأول ولا يتمّ معناه إلّا بالثاني، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر، وهو عندي غير معيب؛ لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني، فليس ذلك بسبب يوجب عيبًا؛ إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر، وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالأخرى؛ لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفًّى دلَّ على معنى.

والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفًّى دل على معنى، فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير، والفقر المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد وردت في القرآن الكريم في مواضع منه، فمن ذلك قوله -عز وجل- في سورة الصافات: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} . فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض، فلا تفهم كل واحد منهن إلّا بالتي تليها، وهذا كالأبيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض، ولو كان ذلك عيبًا لما ورد في كتاب الله -عز وجل. وكذلك ورد قوله تعالى في سورة الصافات أيضًا: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ}، فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى، وهكذا ورد قوله -عز وجل- في سورة الشعراء: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} .

فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة، ألا ترى أن الأولى والثانية في معرض استفهام يفتقر إلى جواب، والجواب هو في الثالثة، وقد استعمله العرب كثيرًا، وورد في شعر فحول شعرائهم، فمن ذلك قول الشاعر:

ومن البلوى التي ليس ... لها في الناس كنه

أن من يعرف شيئًـــا ... يدَّعي أكثر منـــه

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه، ولا تَمَّ معناه إلّا بالبيت الثاني؟

ومنه أيضًا قول امرئ القيس:

فقلت لــه لما تمطَّـــى بصلبه ... وأردف أعجازًا وناء بكلكـــل

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وبهذه الحافظة الواعية يؤيد ابن الأثير قوله، جاعلًا أمامه الكتاب الكريم، وهو المثل الأعلى للبيان والبلاغة، وشعر الفحول من السابقين "كلامه يوافق الرأي الذي يجب أن يحتذى، وإن لم يذكر له من أسباب التأييد والتعليل سوى ورود أمثاله في غرر الكلام، وأما العلة الأدبية فتلتمس في مثل ما قدمناه.

السرقات الشعرية عند ابن الأثير:

ويعد ابن الأثير من أعظم نقاد العرب الذين درسوا السرقات الشعرية وفصَّلوا القول في ضروبها، ويعد المثل السائر من أعظم الكتب التي

درس فيها هذا الموضوع دراسة خصبة مجدية، يرجع إليها الباحثون في هذا الموضع الذي يشتمل في كثير من أصول النقد عند العرب.
تلك بعض لمحات مما اشتمل عليه هذا الأثر النفيس الذي احتلَّ منزلته بحق بين أصول البلاغة والنقد الفني عند العرب.

أبواب علم البيان في كتاب المثل السائر:

وهو ممن ابتعدوا في دراسة البلاغة عن طريقة السكاكي، والذي تتسع عنده كلمة «علم البيان» لتشمل كذلك مباحث المعاني والبديع.
وقد بنى ابن الأثير كتابه على مقدمة ومقالتين: المقدمة تعالج أصول علم البيان، والمقالة الأولى في الصناعة اللفظية، والمقالة الثانية في الصناعة المعنوية.
وما يعنينا هنا من كتابه هو محاولة التعرف على المساهمة العلمية التي أسهم بها في تطوير مباحث علم البيان، وهذه المباحث التي عالجها في كتابه وعدّها من الصناعة المعنوية هي: الاستعارة والمجاز والتشبيه والكناية والتعريض.
وتجدر الإشارة إلى أنّ كلامه عن هذه المباحث ينقصه التنظيم والتبويب، فالحديث عن هذه الفنون البيانية يأتي عنده متداخلا على حسب ما تستدعيه طبيعة البحث.
ومع هذا فإنّ الدارس لمباحث علم البيان في كتاب المثل السائر يخرج منه بصورة شاملة واضحة لهذه المباحث البيانية، وبصورة

أخرى لمنهاج ابن الأثير في البحث، هذا المنهاج الذي يجمع فيه بين علمه الدقيق بأصول البيان العربي وبين النقد والتحليل.

وإذا انتقلنا الآن إلى عرض كلامه في مباحث علم البيان فإننا نراه بدأ أوّل ما بدأ بالاستعارة ممهدا لها بحديث عن المجاز، فالاستعارة عنده من أوصاف الفصاحة والبلاغة العامة التي ترجع إلى المعنى، وهي ضرب من المجاز الذي هو قسمان: توسع في الكلام وتشبيه. ولا يكاد يذكر التشبيه حتى يستطرد إلى الكلام عنه فيقسمه تقسيما أوليا إلى تشبيه تام وتشبيه محذوف مع تعريف كليهما وتوضيحه بالأمثلة.

ولا ينتهي من ذلك حتى يبدأ فيقسم التشبيه تقسيما آخر، من حيث ذكر أداة التشبيه وحذفها، إلى تشبيه (مظهر وتشبيه مضمر). وهنا يضطره البحث إلى التفريق بين التشبيه المضمر والاستعارة، فالتشبيه المضمر يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، أمّا الاستعارة فلا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها، أي أنّها لا تكون إلّا بحيث يطوي ذكر المستعار له.

وينتقل من ذلك إلى ذكر سبب تسمية الاستعارة، وبيان حقيقتها، وميزتها على التشبيه المضمر.

ثمّ يعود إلى التشبيه استيفاء للكلام عنه، فيقسم المضمر منه خمسة أقسام من حيث تقدير أداة التشبيه. فإذا ما فرغ من ذلك نراه يشير إلى تفرقة علماء البيان بين التشبيه والتمثيل، مع أنهما في رأيه

شيء واحد، لا فرق بينهما في أصل الوضع، إذ يقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال مثلته به.

ومن بيان فائدة التشبيه يستطرد إلى القول بأنّ تشبيه الشيئين أحدهما بالآخر لا يخلو من أربعة أقسام: إما تشبيه معنى بمعنى، كقولنا: زيد كالأسد، وإمّا تشبيه صورة بصورة، كقوله تعالى: وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ، وإمّا تشبيه معنى بصورة، كقوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ، وإمّا تشبيه صورة بمعنى، كقول أبي تمام:

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا ... فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال والأعداء، وذلك صورة مرئية، بفتك الصبابة وهو فتك معنوي.

وعنده أن أبلغ هذه الأقسام الأربعة هو تشبيه معنى بصورة لتمثيله المعاني الموهومة أو المتخيلة بالصور المشاهدة، وأنّ ألطف هذه الأقسام هو تشبيه صورة بمعنى، لأنّ فيه نقل صورة إلى غير صورة.

وتقسيمه السابق للتشبيه هو تقسيم له من حيث المعنى، ولهذا نراه يقسمه مرة أخرى من حيث اللفظ أقساما أربعة أيضا هي: تشبيه مفرد بمفرد، وتشبيه مركب بمركب، وتشبيه مفرد بمركب، وتشبيه مركب بمفرد، موضحا كل ذلك بالأمثلة.

وهو يعني بتشبيه مفرد بمفرد تشبيه شيء واحد بشيء واحد، كما يعني بالمركب تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما،

بعد ذلك ينتقل ابن الأثير إلى الحديث عن الكناية والتعريض في موضع آخر من كتابه ذاكرا في مستهل حديثه أنّ علماء البيان من أمثال الغانمي وأبي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي قد خلطوا الكناية بالتعريض، ولم يفرقوا بينهما، ولم يعرّفوا كليهما بتعريف يميزه عن الآخر.

وتمهيدا لتحديد مفهوم الكناية عنده يقول ابن الأثير: «إنّ الكناية إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز، وجاز حملها على الجانبين .... وأمّا التشبيه فليس كذلك، ولا غيره من أقسام المجاز، لأنّه لا يجوز حمله إلّا على جانب المجاز خاصة، ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى.

ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد أسد، لا يصح إلّا على جانب المجاز خاصة، وذاك أنّا شبهنا زيدا بالأسد في شجاعته، ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى، لأنّ زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الأربع، والذنب، والوبر، والأنياب والمخالب، وإذا كان الأمر كذلك فحدّ الكناية الجامع لها هو أنّها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز» ،

ثمّ يعرض ابن الأثير بعد ذلك لاشتقاق لفظة «الكناية» مقررا أنّها قد تكون مشتقة من لفظة «الكنية» أو من الستر، إذ يقال كنيت الشيء إذا سترته. كما يقرر أنّ الكناية ليست نوعا مستقلا من المجاز، وإنّما هي جزء من الاستعارة، لأنّ الاستعارة لا تكون إلّا بحيث يطوى المستعار له، وكذلك الكناية فإنّها لا تكون إلّا بحيث يطوى ذكر المكنّى عنه.

ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام، فيقال: كل كناية استعارة وليس كل استعارة كناية. هذا فرق بينهما، وفرق آخر هو أنّ الاستعارة لفظها صريح، والصريح هو ما دلّ عليه ظاهر لفظه، والكناية ضدّ الصريح، لأنّها عدول عن ظاهر اللفظ.

فهذه فروق ثلاثة بين الاستعارة والكناية ذكرهما ابن الأثير: أحدهما الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والثالث الحمل على جانب الحقيقة والمجاز.

وكما فرّق بين الكناية والاستعارة، فرّق أيضا بين الكناية والتعريض الذي عرفه بقوله: «هو اللفظ الدال على الشيء عن طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»، فإذا قال قائل لمن يتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: «والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان، والبرد قد آذاني» فإنّ هذا القول وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا القول موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا،

وإنّما دلّ عليه من طريق المفهوم. وعنده أنّ التعريض سمي تعريضا لأنّ المعنى يفهم فيه من عرضه، أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه.

وكما فرّق بين الكناية والتعريض من جهة خفاء الدلالة ووضوحها، فرّق بينهما من جهة اللفظ، فالكناية تشمل المفرد والمركب معا، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، أمّا التعريض فيختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة.

ودليله على ذلك أنّ المعنى في التعريض لا يفهم من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنّما يفهم من جهة التلويح والإشارة، وذلك لا ينهض به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب.

وأخيرا يختم ابن الأثير كلامه عن الكناية والتعريض بضرب الأمثلة عليهما نثرا ونظما حتى يزيد ما ذكره عنهما وضوحا.

ذلك عرض موجز لجانب من كتاب المثل السائر لابن الأثير، وهو الجانب الذي تكلّم فيه عن مباحث علم البيان من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية. وقد قصدنا من وراء هذا العرض الموجز إلى بيان أمرين: مدى مساهمة ابن الأثير في تطوير هذه المباحث البيانية عن طريق المادة البلاغية التي قدّمها لنا فيها، وكذلك الطريقة التي سلكها في معالجة هذه المادة وعرضها، وهي طريقة تخالف بلا شك طريقة

السكاكي التي قصد بها إلى تأصيل قواعد البلاغة وصبها في قوالب منطقية جافة.

وربما التقيا في كثرة التقسيمات والتفريعات، ولكن شتان بين تقسيمات وتفريعات يغلب عليها المنطق وأخرى يجليها الفن ويحببها إلى النفس.

[كتاب الطراز للعلوى يحيى بن حمزة]

ومن علماء البلاغة أيضا يحيى بن حمزة العلوي اليمني المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وصاحب المصنفات المختلفة في النحو والفقه وأصول الدين والبلاغة. ومما صنفه في البلاغة كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»، ويقع في ثلاثة أجزاء.

وهو متأثر في كتابه هذا بخمسة كتب هي: المفتاح للسكاكي والمثل السائر لابن الأثير، وكتاب التبيان في علم البيان لابن الزملكاني، وكتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي، وكتاب المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك.

وكتابه لا تبدو فيه طريقة مميزة لصاحبه، وإنّما هو موزع بين طريقة السكاكي، وطريقة الرازي، وطريقة ابن الأثير ومباحثهم وما أصّلوه

من قواعد البلاغة. وقد بناه على مقدمات ومقاصد وتكميلات وسمي كل جانب من هذه الجوانب فنًا.

وبعد؛ فإن كتاب الطراز، يعد من الكتب البلاغية التي حاول أصحابها الخروج على طريقة السكاكى، تلك الطريقة المنطقية العقلية الجافة، بما تشتمل عليه من المبالغة في التقسيم والتقعيد والتعقيد كذلك، كما يغلب عليها الإيجاز والاختصار الشديد المخل بحق البلاغة، مع ندرة الشواهد والتحليلات البلاغية.

وقد حاول يحيى العلوي تقليد ابن الأثير في طريقته الأدبية التحليلية في تناول علوم البلاغة، هربًا من جفاف التناول المنطقي عند السكاكى ومن لفّ لفّه.

ونستطيع أن نقول: إن العلوي قد نجح في سلوك الطريقة الأدبية إلى حد كبير؛ وذلك واضح في كثرة شواهده، بل اختلاف تلك الشواهد في كثير من الأحيان عن الشواهد المكرورة عند السكاكى وأتباعه، وإن كان في بعض الأحيان وخاصة في فنون البديع لا يكاد يعدو تلك الشواهد التي درج السكاكى وأتباعه على الاستشهاد بها.

وتتميز طريقته كذلك بكثرة التحليلات الأدبية، وقد أولى القرآن عناية خاصة، ولا عجب في ذلك فقد نذر نفسه لبيان أسرار إعجازه كما هو واضح من عنوان كتابه، «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز».

ولكننا لن نبالغ في الثناء على العلوي لنرتقي به إلى رتبة عبد القاهر الذي نوّه العلوي بذكره في مقدمته، ولكنه قرر أنه لم يطلع على كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، وأنه لم ير منهما إلا شذرات في تعليقات العلماء تنبئ عما وراءها من روعة وإبداع. بل إننا نقرر أنه لا يرقى كذلك إلى براعة ابن الأثير، ودقة نظراته وتحليلاته الرائعة.[1]

ولكن لا يعدم القارئ لهذا الكتاب أن يجد محاولات جادة للعلوى في الخروج على ربقة السكاكى ومدرسته، ويتضح ذلك من محاولاته المتكررة لمناقشة السّكاكى والرد عليه في مواضع عديدة.

ومع ذلك فقد قرأ العلوي مفتاح العلوم للسكاكى وتأثر به كذلك، وهو وإن حاول الخروج على طريقة المدرسة السكاكية بطريقته الأدبية في التناول والتحليل؛ فإنه لم يستطع التخلص كذلك من طريقة تلك المدرسة في كثرة التقسيمات والتفريعات فهو يقلد في ذلك السكاكى والرازي حيث يبنى كتابه على مقدمات ومقاصد ومكملات ... إلخ.

<u>مباحث علم البيان في كتاب الطراز:</u>

وفي الفن الثاني من الكتاب يتحدّث عن موضوعات البيان بادئا

[1] انظر: مقدمة المحقق لكتاب الطراز، المكتبة العنصرية – بيروت ،١٤٢٣هـ، ص٤

بالمجاز ومدخلًا فيه الاستعارة والتمثيل والكناية. وهو في إدخاله الكناية في المجاز يخالف ابن الأثير الذي قرر أنّ الكناية ليست نوعا مستقلا من المجاز، وإنّما هي جزء من الاستعارة.

ثمّ يعرض بالقول للاستعارة فيفصّل القول فيها ذاكرا تعريف الرماني والرازي وابن الأثير لها، وهو يدخل فيها التشبيه البليغ أو التشبيه المضمر الأداة كما يسميه ابن الأثير. ويسوق على الاستعارة شواهد كثيرة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ومن كلام العرب نثرا وشعرا.

وأخيرا يتكلم عن أقسام الاستعارة مستأنسا في ذلك بكلام الرازي وبدر الدين بن مالك.

ومن الاستعارة ينتقل إلى التشبيه فيطيل الكلام فيه مفيدا من كل ما ذكره الرازي وبدر الدين بن مالك وابن الأثير.

وأخيرا يتحدّث عن الكناية ويسوق فيها تعريف عبد القاهر الجرجاني وهو: «والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ إليه ويجعله دليلا عليه»، مثال ذلك قولهم «هو طويل النجاد» يريدون طويل القامة، وفي المرأة «نؤوم الضحى» والمراد أنّها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله، كما ترى، معنى ثمّ لم يذكروه بلفظه الخاص به،

ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أنّ القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى كذلك ساق تفريعات بدر الدين بن مالك وابن الأثير وبعض علماء أصول الفقه في الكناية، وتحدّث عن أقسامها كما تحدّث عن التعريض، وأخيرًا ختم كلامه في البيان عن التمثيل.

البديع والبديعيات

كل بيت منها على لون أو أكثر من البديع، إما تمثيلاً فقط، وإما جمعًا التمثيل فهي منظومات البديع تشبه منظومات كألفية مالك النحو، وكالشاطبية في القراءات، وأول من سبق هذه البديعيات هو الشاعر المصري: علي عثمان علي سليمان الأربلي، وهو شاعر توفي سنة ٦٧٠هـ، وقد اشتملت بديعيته على ستة وثلاثين يتضمن كل منها لونا من ألوان البديع كتب إلى وقد بدأها الأربلي بالغزل ثم خلص معروف، ومنها قوله:

بعض هذا الدلال والإدلال*حال بالهجر والتجنب حالي

الجناس اللفظي

ثم تلاه صفى الدين الحلى "ت ٧٥٠ هـ" فنظم بديعيته في مدح المصطفى معارضا بها بردة البوصيري وقد عرفت باسم "نهج

البردة"، فهي على وزنها ورويها وغرضها وزادت عليها في الاحتفال بالبديع، إذ بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين ومائة عام١١٧ اشتملت على مائة وخمسين لونا من ألوان البديع، ولم يفصل الحلي بين علوم البلاغة، بل تناول مسائلها تحت اسم البديع، وقد أشار إلى أنه استعان بسبعين كتابا في تأليف تلك البديعية، ومنها قوله:

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم *

واقرأ السّلام على عُرب بذي سلم

براعة المطلع والتجنيس

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم * لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمي

تجنيس التلفيق

ومن البديعيات بديعية ابن جابر الأندلسي، وكان معاصرا للحلي، وقد نشأ في بلاد الأندلس، ثم رحل إلى مصر، ونظم تلك البديعية التي ساها "الحلة السيرافي مدح خير الورى"[١]

، وشرحها صاحبه ومعاصره أبو جعفر الغرناطي شرحا سماه: "طراز الحلة وشفاء الغلة"، وتختلف هذه البديعية عن غيرها من البديعيات بأن ناظمها قد اقتصر على ألوان البديع التي عرفت عند

[١] السيراء: المخططة أو التي يخالطها حرير

الخطيب كما فصل بين ألوان البديع المعنوية واللفظية فلم يخلط بينها، وتقع البديعية في مائة وسبعة وعشرين بيتا، منها:

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم * وانثر له المدح وانشر أطيب الكلم

براعة استهلال

وابذل دموعك واعذل كل مصطبر

والحق بمن سار والحظ ما على القلم

<u>الجناس اللاحق</u>

ومنها بديعية عز الدين الموصلي: "ت ٧٨٩هـ" وعدد أبياتها خمسة وأربعون ومائة بيت، وهو أول من شرع للبديعيات التقيد بالتزام التورية باسم اللون البديعي فزادها هذا الالتزام ثقلاً على ثقل، يقول في مطلعها مشيرا إلى براعة الاستهلال:

براعة تستهل الدمع في العلم*عبارة عن نداء المفرد العلم

ومنها بديعية ابن حجة الحموي: "ت ٨٢٧هـ" التي نظمها على طريقة شيخه عز الدين الموصلي، وتقع في مائة واثنين وأربعين بيتا، يشتمل كل بيت على لون من ألوان البديع ... يقول في مطلعها عن براعة الاستهلال:

لي في ابتداء مدحكم يا عرب ذي سلم* براعة تستهل الدمع في العلم

ومنها قوله مشيرًا إلى الطباق:

بوحشة بلوا أني وقد خفضواقدري وزادوا علوا في طباقهم**

وقوله مشيرًا إلى التمثيل:

وقلــت ردفك مـوج كـى أمثله** بالـمـوج قال: قـد اسـتـسمنت ذا ورم

واستمرت البديعيات، فرأينا بديعية عائشة الباعونية الدمشقية: "ت ٩٢٢هـ" وبديعية صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني: "ت ١١١٧هـ" وقد ألف عليها شرخا سماه "أنوار الربيع في أنواع البديع"، ولعب د الغني النابلسي: "ت ١١٤٣هـ" بديعيتان، أولاهما على غرار بديعية الحلى والباعونية، أي أن أبياتها لا تتضمن أسماء المحسنات البديعية، وقد ساها "نسمات الأسحار في مدح النبي المختار"، وثانيتها على غرار بديعية الموصلي والحموي، أي أن أبياتها تتضمن أسماء المحسنات البديعية، ولمحمود صفوت الساعاتي المصري: "ت ١٢٩٨ه" بديعية اشتملت على مائة وخمسين لونا من ألوان البديع في مائة واثنين وأربعين بيتا، معارضا بها بديعية ابن حجة ملتزما ما التزمه من التورية باسم اللون البديعي، ومنها قوله مشيرا إلى براعة الاستهلال:

سـفح الـدموع لـذكـر الـسفح والعلـم *أبدي البراعة في اسـتهلاله بـدم

ومنها قوله في التورية:

وكـم بـكـيـت عقيقـا والبـكاء علـي* بـدر وتــوريتي كانــت لبدرهم

إلى غير ذلك من البديعيات التي استبدت بالشعر منذ أواسط القرن السابع الهجري، والتي تستطيع أن نقول عنها: إنها صناعة من

العبث، أضعفت الشعر وجوده من روائعه وهوت به إلى هاوية الإسفاف، كنا جنت على البديع وفنونه وذهبت به مذاهب التشعيب، فعل منه ما لا يصح أن يكون منه، حتى كانت الكثرة التي بلغت حد الإملال فضلاً عن أن تلك البديعيات مالت إلى التلخيص الشديد الذي احتاج إلى الشروح وتوضيح الشروح، فلم تعد على البديع بدراسة غنية مفيدة، ولم يجن منها سوى الإفراط والتفريط في تصنع ألوانه وتكلف مسمياته.

البديع بين الذاتية والعرضية

ظلت فنون البلاغة منذ أن كتب فيها العلماء وألفت المؤلفات وحتى عصر الزمخشري لا تعرف تقسيما ولا تمييزا، فكانت تدرس تلك الفنون على أن حسنها حسن ذال يقتضيه المقام ويستدعيه الكلام، وقد مر بك حديث عبد القاهر عن بعض فنون البديع كالجناس والسجع والمزاوجة والتقسيم وحسن التعليل، ورأيت كيف يبرز المزايا البلاغية لتلك الفنون ويبين أن الحسن الكامن وراءها حسن ذاتي يرجع إلى المعنى وما يقتضيه المقام.

وبعد الزمخشري رأينا السكاكي يحصر البلاغة في علمي المعاني والبيان، جاعلاً فنون البديع وجوها يصار إليه لقصد تحسين الكلام، ثم قسم هذه الوجوه إلى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ.

وجاء بدر الدين بن مالك؛ فأطلق على تلك الوجوه: علم البديع، وبهذا صارت البلاغة ثلاثة علوم، ولما جاء الخطيب ولخص المفتاح ثم وضع التلخيص، فصل البديع فصلاً كاملاً عن أخويه البيان والمعاني، وصارت البلاغة عند الخطيب ومن تبعه محصورة في علمي المعاني والبيان، أما البديع فصار علم تحسين وتزيين... وعرفه الخطيب بقوله: "هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة [1]

من مصادر التراث الأندلسي والمغربي

شرح كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

نبذة عن مؤلف الكتاب:

ابن بسام هو: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أديب من الكتاب الوزراء. نسبته إلى شنترين (المسماة اليوم Santarem في البرتغال. اشتهر بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وهو من أهم مصادر الأدب الأندلسي وهو في ثماني مجلدات، تشتمل على ١٥٤ ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم أو تقدموه قليلا

سبب تسمية الكتاب:

رأي ابن بسام أنه ادخر في كتابه كثير من التراجم والأدب والنقد ومزايا أهل الأندلس ومحاسنهم؛ لذا أصبح الكتاب ذخيرة عظيمة؛ وقد

[1] (1) تلخيص المفتاح ٣١٥.

هدف من تأليف كتابه إلى التعريف بأهل الأندلس أدبائها وشعرائها وأخبارهم؛ كما قصد به عرض آراء نقدية كثيرة في النثر والشعر.

محتوي الكتاب

بين ابن بسام في مقدمة كتاب الذخيرة أنه قد جعله أربعة أقسام، على النحو الآتي:

١ - القسم الأول: لأهل قرطبة ووسط الأندلس، وقد ترجم خلاله لأربعة وثلاثين أديبًا ومؤرخًا وسياسيًا، منهم ابن حزم وابن زيدون وولادة وابن شهيد.

٢ - القسم الثاني: لأهل الجانب الغربي من الأندلس وأهل إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط. وترجم فيه لستة وأربعين من الكتاب والرؤساء منهم ابن عباد وابن المعتمد وابن عمار وابن عبدون ...إلخ

٣ - القسم الثالث: لأهل الجانب الشرقي من الأندلس. ومن نجم من كواكب العصر في أفق ذلك الثغر الأعلى، إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك، وفيه من القصص وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء طوائف منهم: ابن خفاجة وابن اللبانة

٤ - القسم الرابع: لمن طرأ على جزيرة الأندلس من شعراء وكتاب. ووصل بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق، ممن نجم في عصره بأفريقية والشام والعراق، فيشتمل منهم على جملة، منهم: الشريف الرضي، والثعالبي، وأبو إسحاق الحصري، وابن رشيق القيرواني ...إلخ

منهجه في الكتاب:

سار ابن بسام علي نهج أبي منصور الثعالبي، في تأليفه المشهور، المترجم ب - " يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر ". فهو يترجم

للأدباء أو الشعراء ويرتبهم حسب مكانة كل أديب أو شاعر عنده، دون أن ينسي توجيه آرائه النقدية لما يعرضه؛ وهو في ذلك ملتزم بالترجمة لأهل عصره.

جهود المحقق: إحسان عباس

قام محقق هذا الكتاب بجهود عظيمة يجملها في قوله :" فقد صححت عدداً غير قليل من أخطاء القراءة، وعرفت بالأعلام والأماكن حيث كان ذلك ضرورياً، وشرحت الألفاظ التي تتطلب شرحاً وخاصة بعض المصطلحات الأندلسية مثل حنبل وطولق وقلبق وما أشبه ذلك من ألفاظ غير مألوفة أو معروفة لدى المشارقة، إذ قد يستغرق البحث عن معانيها وقتاً طويلاً لا يتيسر لكل قارئ، كما وفقت إلى تخريج كثير من الشواهد الشعرية التي أدرجها المؤلف في الكتاب، واتبعت نهجاً مختلفاً في تمييز الأصيل من الدخيل في نص الكتاب، وراجعت النص على المصادر التي استمدت من الذخيرة، وعلى سائر المصادر الأندلسية التي طبعت بعد صدور ما طبع منها".

كما يري ضرورة الإسراع بعمل فهارس خاصة بكل قسم من أقسام الكتاب (وكل قسم يقع في جزئين متسلسلي الترقيم) بدلاً من إرجاء الفهرسة حتى يتم ظهور الأجزاء جميعاً. على أني أرجو أن أخصص جزءاً تاسعاً للاستدراكات العامة والتعليقات وبعض الفهارس الفنية التي تيسر الإفادة من هذا الكتاب القيم؛ كذلك أرجو أن يكون هذا الجزء الأخير مجالاً لدراسة مؤلف الكتاب، ومنزلته الأدبية، وقيمة كتابه من النواحي التاريخية والأدبية والنقدية، وهي دراسة لا يمكن أن تتم على الصورة الشاملة المرضية قبل اكتمال أجزاء الكتاب تحقيقًا ونشرًا.

القيمة الأدبية للكتاب

- للكتاب قيمة تاريخية نظرًا لاعتماد مؤلفه على كتاب "المتين" لابن حيّان.
- التعريف بمجموعة كبيرة من الشعراء والأدباء وعرض نماذج من أدبهم وشعرهم.
- يعد كتاب الذخيرة من أهم مصادر الأدب الأندلسي، فهو صورة للحياة الأدبية الأندلسية.
- الكتاب صورة لأدب القرن الخامس الهجري، وهو من أزهي عصور الأندلس.
- يشتمل الكتاب على آراء ابن بسام النقدية.

مآخذ الكتاب:

- من يقرأ كتاب الذخيرة يجد فيه تحاملا من ابن بسام علي المشارقة وتحيزًا للأندلسيين حيث حاول إظهار فضلهم دون المشارقة؛ رغم أنه جري في تأليفه على منهج الثعالبي في كتاب اليتيمة
- تعصّب ابن بسام للكتاب على الشعراء وخصّهم بالتكريم.
- لم يجر على خطة موحدة أو منهجًا ثابتا في تراجم الأدباء والشعراء.
- الاقتصار على أهل زمانه مع حذف بعض الأسماء التي لها صلة بأحداث تاريخية مما يقلل من القيمة التاريخية للنصوص عند توثيقها.

نموذج من كتاب الذخيرة

يقول ابن بسام:" وقد أودعت هذا الديوان الذي سميته ب " كتاب الذخيرة، في محاسن أهل هذه الجزيرة " من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الأحبة، بين التمنع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المثالث والأزيار؛ لأن أهل هذه الجزيرة - مذ كانوا - رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة، تدفقوا

فأنسوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور؛ وذهب كلامهم بين رقة الهواء، وجزالة الصخرة الصماء، ....، فأضربت أنا عما ألف، ولم أعرض لشيء مما صنف. ولا تعديت أهل عصري، ممن شاهدته بعمري، أو لحقه بعض أهل دهري.

شرح كتاب الأمالي لأبي على القالي

أولا: التعريف بالمؤلف

مولده ونشأته:

ولد أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالي في منازكرد من أعمال ديار بكر عام ٢٨٨ هـ. جده سلمان كان مولى لمحمد بن عبد الملك بن مروان. وفد إلى بغداد عام ٣٠٣ هـ في صحبة قوم في قرية «قالي قلا» من أعمال أرمينية، فنُسب إليها، ولم يكن منها. وكان أهل المغرب يلقبونه بالبغدادي لمجيئه إليهم من بغداد.

فتعلم في بغداد وأقام ٢٥ سنة، ثم رحل إلى المغرب سنة ٣٢٨ هـ فدخل قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطنها، وأحبه الحكم المستنصر ابن الناصر. ويقال: إنه هو كتب إليه ورغبه في الوفود عليه. وكان الحكم قبل ولايته الأمر - وبعد توليه - ينشطه على التأليف بواسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام، ومات أبو علي في أيامه بقرطبة في ٧ جمادى الأولى ٣٥٦ هـ.

حياته العلمية وشيوخه:

سمع من أبي القاسم البغوي وأبي سعيد الحسن بن علي العدوي وأبي بكر بن أبي داود السجستاني وابن دريد وأبي إسحاق الزجاج ونفطويه وابن الأنباري وابن درستويه؛ لذا أجمع المؤرخون على أن أبا علي

القالي: أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب. وفي زمن إقامته في الأندلس، أدناه ولي العهد الحكم منه، وأغدق عليه المال لينشّطه على التأليف. وقد انتشر علمه فيها، وروى عنه عبد الله بن الربيع التميمي وأبي بكر الزبيدي وأحمد بن أبان بن سيد.

أشهر مؤلفاته:

ألف القالي العديد من التصانيف أشهرها كتاب الأمالي وهو كتاب في نوادر الأخبار والأشعار، و«البارع في اللغة» وهو من أوسع كتب اللغة و«المقصور والممدود والمهموز» و«الأمثال» وهو مرتب على حروف المعجم و«الإبل ونتاجها» و«مقاتل الفرسان» و«في حلي الإنسان والخيل وشياتها» و«فعلت وأفعلت» وكتاب في شرح المعلقات، و«تفسير السبع الطوال».

مما سبق عرضه يتضح لنا أن أبا علي القالي لغوي نشأ في المشرق ثم انتقل إلى الأندلس.

القيمة العلمية للكتاب:

***ترجع قيمة كتاب الأمالي إلي ما قاله العلماء عنه من أنه أحد أركان الأدب العربي الأربعة (أدب الكاتب والبيان والتبيين والكامل والأمالي) . والأمالي مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد ولإن كان كتاب الكامل أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب الأمالي أكثر لغة وشعرا)**

*محتوي الكتاب وموضوعاته:

يحتوي الكتاب على مجموعة مباحث لغوية، وروايات أدبية من الشعر والأخبار والخطب والأمثال والأحاديث النبوية، وقد أملاها القالي على طلابه. وهو ما أشير إليه القالي في مدمة كتابه حيث يقول: "فأمللت هذا الكتاب من حفظي في قرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة؛ وأودعته فنونًا من الأخبار، وضروبًا من الأشعار ،وأنواعًا من الأمثال ، وغرائب اللغات ،..."

* منهجه في الكتاب :

الكتاب مجموعة مجالس كان يملي فيها القالي محاضرات في اللغة والأدب.

صرح في مقدمته بإهداء الكتاب للخليفة الناصر، ويتضح منهجه من وصفه للكتاب حيث قال في مقدمته: (...على أنّي لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فنّاً من الخبر إلا انتخلته، ولا نوعًا من المعاني والمثل إلا استجدته، ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول صلي الله عليه وسلم، علي أنني أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد ، وفسرت فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر؛ ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسانُ الخليفة جامعاً، والديوان الذي ذكر فيه اسم الإمام كاملا)

يتضح مما عرضه القالي في مقدمته للكتاب أن منهجه اعتمد على الاستطراد والتفسير والشرح وهو ما وجدناه عند الجاحظ في البيان والتبيين، وهو أيضًا قريب من منهج المبرد في كتاب الكامل.

ولكن ما يميز منهج القالي نخل الأخبار والضبط والإتقان.

*القيمة العلمية للكتاب:

هو تأليف جزيل الفائدة، جمّ النفع لمن يريد التعمق في علم اللغة، وتزيين عقله بالآداب العربية، والأخبار المنتخبة، والأشعار المختارة، والأمثال المستجادة، والحكم البالغة، ويكن إجمال قيمة الكتاب في النقاط الآتية:

يحتوي على مادة متنوعة في الأدب واللغة.

هو أحد أصول الأدب الأربعة (أدب الكاتب –البيان والتبيين –الكامل – الأمالي) وهو من أضبط كتب الأدب رواية وأدقها تحقيقًا.

يُضاهي كتاب الكامل ويباريه؛ بل أكثر منه لغة وشعرًا.

يعد مصدرًا من مصادر كتب اللغة، فهو مملوء بالألفاظ الغريبة والإشارة إلى اشتقاقها.

الالتزام بالدقة فيما أورده المؤلف من نصوص من حيث الرواية والإسناد. وهذا الأمر مرجعه سعة اطلاعه في العلم والرواية، وطول باعه في اللغة وفنونها.

يتميز الكتاب بالشروح والتعليقات المفيدة لطالب اللغة والأدب.

تفرد كتاب الأمالي بذكر أحاديث ابن دريد وما حوته من الألفاظ الصعبة. لذا كان الكتاب مرجعا مهما لأصحاب المعاجم الذين أتوا بعد القالي.

***مآخذ الكتاب:**

الاستطراد الذي يُؤدي إلى التفكك والتكرار.

الإطالة في بعض الأخبار (قد يصل الخبر أحيانًا إلى عدة صفحات)

***نموذج من كتاب الأمالي**

وطريقة المؤلف لا تخرج عن طريقة اللغويين الذين يتلمسون الصحة والسلامة في فصاحة اللفظ عند الجاهليين والإسلاميين، فكثيراً ما يدعم قوله بما نطق به القرآن الكريم، وصرح به الحديث النبوي الشريف ومن ذلك (الرَّدْء: العون، قال الله {فأرسِلْهُ معِيَ رِدْأً يُصَدِّقني)

ومن جملة ما استشهد بالحديث النبوي الشريف قوله (فقال أبو عبيدة عِرْضُه: آباؤه وأسلافه، وخالفه ابن قتيبة فقال: عِرْضُه: جَسَده، واحتَجَّ بحديث النبي في صفة أهل الجنة [لا يبولون ولا يتغَوَّطون إنما هو عَرَقٌ يجري من أعراضهم مثل المِسْك] يعني من أبدانهم

ويستشهد أبو علي القالي بما قالته العرب من الامثال وهو الرأي الواسع عنده ويبدو أن ذكره للأمثال العربية بكثرة يدل على ثراء لغته واطلاعه الواسع على لغات العرب المختلفة ومن شواهد ذلك (وقال

الأصمعي : من أمثال العرب ((ذَكَّرنَي الطَّعنَ وكنتُ (ناسيًا)) يضرب مثلاً للرجل يسمع الكلمة فيتذكر بها شيئا ،)يقال : ((أصْرَدُ من عَنزٍ جرباء)) يضرب مثلاً للرجل يَجِد البرد) (قال الأصمعي من أمثال العرب ((خلَّ سبيل مَنْ وَهَى سقاؤه)) يراد به من لم يستقم أمره فلا تعبأ به) (٢ (والملاحظ أنه ينقل أكثر أمثاله عن الأصمعي ، مع أنه قد أفردَ صفحات خاصة لأمثال العرب فيذكر المثل ثم يشرحه.

***نموذج آخر:**

خطبة غراء للملبب بن عوف لذي فائش يعزيه في وفاة ابن له فقال:

" أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتحلي لتمرّ، وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطأتك جلل، ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل. وإن حادثًا ألم بك، فاستبدّ بأقلك، وصفح عن أكثرك، لمن أجلّ النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباء من رزء فصبر، وأصيب فاغتفر، إذ كان شوي فيما يرتقب ويحذر، فاستشعر اليأس فيما فات؛ إذ كان ارتجاعه ممتنعا، ومرامه مستصعبا، فلشيء ما ضربت الأسي، وفزع أولو الألباب إلي حسن العزاء "

أهم المصادر والمراجع

١ـأسرار البلاغة لعبد القاهر، ط: صبيح سنة ١٣٩٧هـ ت، محمد عبد العزيز النجار.

٢ـإعجاز القران، للباقلاني، ت: السيد صقر. ط: دار المعارف سنة ١٩٧٧ م.

٣ـالأمالي، لأبي علي القالي، تحقيق: صلاح بن فتحي هلل ، مؤسسة الكتب الثقافية ـط١، ١٤٢٢ـ٢٠٠١م

٤ـالإيضاح، للقزويني وبهامشه البغية. ط: صبيح سنة ١٣٩٢ هـ.

٥ـالبديع لابن المعتز، نشر إنطانيوس كراتشوفسكى لندن سنة ١٩٣٥

٦ـالبلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف. ط: دار المعارف- القاهرة سنة ١٩٧٧ م.

٧ـالبلاغة القرآنية في تفسير الكشاف، د. محمد محمد أبو موسى. ط: دار الفكر العربي.

٨ـالبيان والتبيين للجاحظ. ط: الخانى. ت: عبد السلام هارون.

٩ـتأويل مشكل القران لابن قتيبة. ط: الحلبي ١٣٧٣ هـ.

١٠ـ ثلاث رسائل في إعجاز القران، للرماني (علي بن عيسى) ط: دار المعارف سنة ١٩٧٦ م.

١١ـ الحيوان للجاحظ. ط: السامي سنة ١٩٥٠ م.

١٢ـ خزانة الأدب، للحموي. ط: الفجالة. ت: د. عبد المنعم خفاجي.

١٣- دراسة في مصادر الأدب، د. الطاهر أحمد مكي، دار الفكر العربي - القاهرة، ط. ثامنة ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م
١٤- دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسي. ط: دار المعلم سنة ١٣٩٩ م.
١٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب -ليبيا ١٩٨١م.
١٦- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي. ط: الخانجي. ت: على فودة.
١٧- الشعر والشعراء، لابن قتيبة. ط: دار الكاتب العربي سنة ١٣٨٨هـ.
١٨- الصاحبي، لأحمد بن فارس. ط: المؤيد سنة ١٣١٨ هـ.
١٩- الصناعتين، لأبى هلال العسكري. ط: الحلبي سنة ١٩٧١م.
٢٠- طبقات فحول الشعراء، للجمحي، ط: المدني. ت: محمود شاكر.
٢١- الطراز، للعلوى. ط: المقتطف سنة ١٣٢٢ هـ.
٢٢- العمدة لابن رشيق القيرواني. ط: دار الجيل. ت: محمد محيي الدين.
٢٣- عيار الشعر لابن طباطبا: ط: شركة فن الطباعة سنة ١٩٥٦م.
٢٤- الفهرست لابن النديم ط: الاستقامة.
٢٥- قواعد الشعر لثعلب. ط: دار المعارف سنة ١٩٦٦ م. ت: د. رمضان عبد التواب.

٢٦- الكامل للمبرد. ط: نهضة مصر سنة ١٩٥٦م ت: محمد أبو الفضل.
٢٧- الكتاب، لسيبويه، ط: الهيئة المصرية، سنة ١٩٧٧ م ت: عبد السلام هارون.
٢٨- الكشاف للزمخشري. ط: الحلبي سنة ١٣٨٩هـ.
٢٩- لسان العرب لابن منظور. ط: دار المعارف.
٣٠- لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة ٢٠١٠م
٣١- المثل السائر لابن الأثير. ط: الحلبي. ت: محمد محيي الدين.
٣٢- مجاز القرآن لأبى عبيدة. ط: الخانجي. ت: محمد فؤاد.
٣٣- معجم الأدباء لياقوت. ط: فريد رفاعي سنة ١٩٣٦م.
٣٤- معاني القرآن للفراء. ط: الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٠م.
٣٥- المغنى في إعجاز القرآن، للقاضي عبد الجبار. ط: وزارة الثقافة والإرشاد.
٣٦- مفتاح العلوم للسكاكى. ط: الحلبي سنة ١٣٥٦هـ.
٣٧- الموازنة للآمدي. ط: دار المعارف سنة ١٣٨٩هـ. ت: السيد صقر.
٣٨- نقد الشعر لقدامة. ط: مطبعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٩٤٩م. ت: كمال مصطفى.

٣٩- نقد النثر (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب. ط: مطبعة مصر سنة ١٩٣٩م. ت: طه حسين، وعبد الحميد العبادي.
٤٠- النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور. ط: نهضة مصر سنة ١٩٧٢م.
٤١- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للرازي، مطبعة الآداب سنة١٣١٧هـ.
٤٢- الوساطة بين المتنبي وخصومه، لعلى بن عبد العزيز الجرجاني. ط: الحلبي. ت: محمد أبو الفضل ابراهيم.
٤٣- وفيات الأعيان، لابن خلكان. ط: نشر فريد رفاعي.
٤٤- يتيمة الدهر، للثعالبي. ط: الصاوي سنة ١٩٣٤م.

---

https://ketabpedia.com

https://www.noor-book.com

https://elmaarifa.inf

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
العنوان	١
بيانات الكتاب	٢
المحتوي	٣
المقدمة: أهمية المكتبة العربية ومصادر التراث	٦
التمهيد: من الرواية إلى التدوين	٩
ـ عصر المخطوطات	٢٥
حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري	٢٩
دور المكتبات الخاصة في نشر الثقافة	٣٢
شروط الناسخ	٣٨
حقوق التأليف	٣٩
محنة التراث الإسلامي علي يد المغول	٤١
اختراع الطابعات	٤٢

● نبذة مختصرة عن أهم المعاجم	٤٣
● أهم كتب فقه اللغة	٤٩
● أهم كتب قواعد العربية (النحو والصرف)	٥١
● من مصادر الدراسات البلاغية	٥٤
● من المختارات الشعرية	٦٢
الكتاب لسيبويه	٦٣
معاني القرآن للفراء	٦٤
مجاز القرآن لأبي عبيدة	٦٥
الأصمعي (عبد الملك بن قريب)	٦٦
صحيفة بشر بن المعتمر	٦٨
البيان والتبيين للجاحـظ	٧١
تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة	٧٧
الكـــامل للمبرد	٨٠
البديع لابن المعتز	٨٤

نقد الشعر لقدامة بن جعفر	٩٠
● من مصادر الإعجاز القرآني	١٠١
رسالة النكت للرماني	١٠٤
إعجاز القرآن للباقلاني	١٠٩
إعجاز القرآن لعبدالجبار	١١٢
● مصادر نقدية أدبية مبنية على أسس بلاغية	١١٦
عيار الشعر لابن طباطبا العلوي	١١٧
الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي	١٢١
الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني	١٢٤
الصناعتين لأبي هلال العسكري	١٣١
العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق	١٤٠
سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي	١٥٠
● مصادر البلاغة عند عبد القاهر الجرجاني	١٥٧
دلائل الإعجاز	١٥٩

أسرار البلاغــة	١٧٧
● مصادر البحث البلاغي بعد عبد القاهر	١٨٥
الاتجاه الفلسفي في التأليف	١٨٦
الاتجاه الأدبي في التأليف	١٨٨
المثل السائر، لابن الأثيـر	١٨٩
الطراز، لعلى بن حمزة العلوي	٢٢١
البديع والبديعيات:	١٨٣
من مصادر التراث الأندلسي والمغربي	٢٣٠
(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام	٢٣٠
(الأمالي) لأبي على القالي	٢٣٤
المصادر والمراجع	٢٣٩
فهرس الموضوعات	٢٤٣-٢٤٦